أحاديث الصباح

في المذياع

تأليف :

محمود شلتوت — عضو جماعة كبار العلماء

محمد محمد المدني — المدرس بكلية الشريعة

تقديم

لفضيلة الشيخ سامى محمد الشعراوى
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فإن رسالة الإسلام استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، فى الدنيا والآخرة ، وجاءت تعاليمها موائمة لفطرة الإنسان التى فطر عليها ، رفعت عنه الحرج ، ويسرت عليه ، وصححت له مسار حياته ، وهدته إلى سبل الخير والفلاح ، وأخذت بيده فى كل ما يعن له من أمور حياته ، أمرته بما فيه الخير له ، ونهته عن كل شر ، فقوّمت خلقه ، وغذّت روحه ، واحترمت عقله ، وحررته من العبودية لغير الله ، وهذا منتهى التكريم من الله للإنسان قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ .

وهذه جملة أحاديث وتوجيهات لشيخين كبيرين وعالمين جليلين من علماء الأزهر الشريف نقدمها للقراء راجين من الله — سبحانه — أن يرحم الشيخين الكريمين وأن ينفع به إنه سميع مجيب .

سامى محمد متولى الشعراوى
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فهذه هى الطائفة الأولى من « أحاديث الصباح » التى ملأت الأسماع فى مصر والعالم العربى عن طريق المذياع يسرنا أن نقدمها مجموعة ميسرة فى هذا الكتاب إلى كل متذوق للحكمة والموعظة الحسنة .

وحسبها أنها قبس من نور النبوة ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

المسلم فى نظر الرّسول

تطالع الناس مع شمس هذا اليوم ذكرى كان لها أبعد الأثر فى حياة الإسلام . بل فى حياة الناس أجمعين ، هى ذكرى الميلاد لرسول الإسلام محمد ﷺ ، ويبتهج المسلمون بهذه الذكرى فى مشارق الأرض ومغاربها ، فيقيمون الحفلات ، وينصبون الزينات ، ويرفعون الأعلام ، ويضيئون الأنوار ، وحُقَّ لهم أن يبتهجوا ، فإن نبى الإسلام كان هو الرحمة التى تنزلت بها السماء على الأرض ، والنور الذى أشرق على القلوب فأحياها ، وعلى الأخلاق فقومها ، وعلى الأعمال فهذبها .

ولعل خير ما أسوقه فى حديث اليوم الذى يتشرف بهذه الذكرى ؛ أن أذكر لحضراتكم تحديد نبى الإسلام لمعنى الإسلام :

يظن كثير من الناس أن الإسلام لفظ يُلاك باللسان ، وحسب المرء ليكون مسلماً أن ينطق بالشهادتين ، وأن يتردد إلى المساجد ، وأن يكثر بلسانه من الدعوة إلى الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة ، وإن كان مع ذلك يؤذى الناس بلسانه : يسب ، ويغتاب ، ويكذب ، ويشى ، ويخدع ، ويؤذيهم بقلبه : يحقد ، ويبغض ويكيد ، ويحسد ، ويؤذيهم بيده : يقتل ، ويسرق ، وينتهب ، ويهتك ، ويشير ويكتب : مثل هذا لا يرى نبى الإسلام أنه مسلم حقاً ، فهو يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . « ليس المسلم بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذىء » « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه » . « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل

المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه » وقيل له ﷺ : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ، وتؤذى جيرانها بلسانها فقال : لا خير فيها هى من أهل النار » ويقول : أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » « تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » ويقول « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » .

هذا هو معنى الإسلام فى نظر رسول الإسلام .

قل آمنت بالله ثم استقم

« روى مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت لرسول الله : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »

* * *

صحابى جليل ، صافى القلب ، نقى الفطرة يرغب إلى رسول الله ﷺ أن يقول له فى معنى الإسلام قولا جامعاً واضحاً ، فيظفر ؛ وتظفر البشرية معه ؛ بهذا الدستور العظيم فى كلمتين اثنتين هما أساس السعادة ، ونبراس الهداية : قل آمنت بالله ؛ ثم استقم .

الإيمان بالله كلمة جامعة تشمل كل العقائد الصحيحة التى جاء بها رسل الله : تصديق بالقلب ؛ وإقرار باللسان ؛ وتأثر صادق بجمال الله وجلاله ، وثقة بتدبيره فى رحمته وعدله : برحمته أرسل الرسل فلم يترك الناس إلى عقولهم التى قد تتأثر بشهواتهم ورغباتهم ، وبعدله أعد دار الجزاء يلقى فيها المحسن إحسانه ، والمسىء إساءته ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

والاستقامة هى التزام المنهج الذى لا عوج فيه ولا التواء ، وقد عبر عنه فى القرآن « بالصراط المستقيم » وهو لفظ شامل لكل ما هو حق وفضيلة : يكون فى العقيدة ، وفى الخلق ، وفى العمل :

هو فى العقيدة خضوع للحجة ، ونزول على حكم البرهان ، وإكبار لشأن العقل واعتداد بنعمة الله فيه ، وثقة بأن الله ما كرم ابن آدم إلا به ، وفناء فى الحق ، واحتمال للأذى فى سبيله — فليس من الصراط المستقيم أن تهيم فى أودية الضلال ، وأن تنزل على حكم الأوهام ، وأن تتقبل الخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس من الصراط المستقيم أن تؤمن بجميع ما ورثته عن الآباء والأجداد من غير نظر ولا تفكير ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، وليس من الصراط المستقيم أن تستكبر عن الحق ، ولا أن تعرض عنه وأنت به عليم ، وليس من الصراط المستقيم أن تضع فى سبيله العقبات ، وتقيم العراقيل ، وليس من الصراط المستقيم أن تقف منه موقف الضعف والاستكانة ، فلا تنصره ولا تؤازره مكتفيا بأن « ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » و « أن المقادير تجرى فى أعنتها » و « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » وأمثال هذه الكلمات التى خرج الناس بها عن مواضعها واستعملوها على غير وجهها ، وأصبحت فى عصور الضعف والاستسلام ، من آيات الإيمان والإسلام !

وهو فى الخلق وسط بين طرفين : لا جبن ولا تهور ، لا [illegible]

ولا استكانة لا إسراف ولا تقتير ، لا تسرّع ولا تبلد ، ولكن قوام بين ذلك تصلح به النفوس ، وتستقيم به الأمور .

وهو فى العمل اعتدال لا يعرف الإفراط ولا التفريط : فهؤلاء الذين يكلفون أنفسهم ما لا يطيقون من الأعمال ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يتحللون من جميع الواجبات ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يحرّمون على أنفسهم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ليسوا على الصراط المستقيم ، وهؤلاء الذين يستبيحون لأنفسهم جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ليسوا على الصراط المستقيم ، وهكذا كان الإسلام فى عقائده وأعماله هو الصراط المستقيم ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قِيَمًا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

ولأمر ما جعل الله أول دعوة عَلَّمها الإنسان ، فى أول سورة من القرآن ، وطلب منه أن يتوجه إليه بها فى كل صلاة هى قوله عز وجل ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

الحياء هو الدّين كله

عن النبى ﷺ أنه قال « إن لكل دين خلقا ، وخلق الإسلام الحياء » .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « الحياء شعبة من الإيمان ولا إيمان لمن لا حياء له » .

وعنه أنه قال « الحياء والإيمان قرينان ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

وذكر الحياء فى مجلسه ﷺ فقال بعض الحاضرين : يارسول الله . الحياء من الدين ؟ فقال « بل هو الدين كله » .

* * *

الحياء خلق يبعث فى النفس بغض القبيح ، ويحول بين صاحبه وبين الفحش والبذاء ، وقد رفع النبى ﷺ من شأن الحياء ، فجعله خلق الإسلام ، ثم رفعه ، فجعله شعبة من الإيمان ، ثم رفعه فجعله قريناً للإيمان : إذا رفع أحدهما رفع الآخر ، ثم رفعه فجعله الدين كله . وكيف لا يكون بهذه المنزلة وهو يقتضى ما يقتضيه الإيمان ويأبى ما يأباه الإيمان . فالحياء من الله — الذى هو أثر لمعرفة الله — يمنع من مخالفة أمر الله ويقضى بطاعته ، ويغرس فى النفس مراقبته فى السر

والعلن ، فصاحب الحياء لا يظلم ولا يسرق ، ولا يأتى ببهتان لأنه يرى الله معه أينما كان ، ومتى كان وكيفما كان . صاحب الحياء يرى نعمة الله عليه وعظمته فى خلقه ، فيمنعه حياء النعمة وحياء الجلال من ارتكاب ما يغضبه والتقصير فيما يرضيه . والحياء فى النعمة شكر ، وفى المصيبة صبر ، وفى المعصية مراقبة ، وفى الأقوال صدق ، وفى المعاملة شرف ، وفى العرض عفّة ، وفى الحرب شجاعة ، وفى الأموال سخاء ، وفى القضاء عدل ، وفى الودائع أمانه ، وفى الكروب رحمة ، وفى المظالم إنصاف ، وفى المعصية ندم وتوبة . وهكذا يجمع الحياء من الله كل الفضائل التى يطلبها الإيمان بالله ، فإذا وجد الحياء وجد الإيمان ، أما الذى حرم فضيلة الحياء فإنه قد حرم معرفة الله . فليس له من خوفه ولا محبته ولا طمعه فى رضاه ما يمنعه عن محاربة الله بارتكاب ما يغضبه والاستهانة بما يرضيه ، فينساب فى شهوته ويفعل الرذيلة على أنها فضيلة : يجاهر بالإثم ويفتخر بالعدوان ، وقد صح فيه قول النبى ﷺ « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » فغشُّ التاجر من عدم الحياء ، وكذب المحدث من عدم الحياء ، والنفاق من عدم الحياء ، والنميمة بين الناس ، وإفساد أواصر الزوجية ، وإيثار رضا الناس على حبّ الله ورضاه من عدم الحياء وهكذا تجد كلّ عمل يمقته الإيمان ناشئا من عدم الحياء .

وإذا كان الحياء من الإيمان ، والإيمان خير كله ، فالحياء خير كله : فعدم الأمر بالمعروف ، وعدم النهى عن المنكر ، وعدم تقرير الحق ، وعدم القيام إلى الصلاة وأنت فى مجلس المتمدينين ، ليس من الحياء فى شىء ، لأنه ليس من الإيمان فى شىء ، وإنما هو جبن فى النفس ، وضعف فى الإيمان ، والتماس لرضا المخلوق بغضب الخالق ، وقد كان النبى ﷺ أشدَّ حياء من العذراء وكان أشد الناس غضباً عند انتهاك حرمات الله أو التقصير فى واجبات الله ، وقد صح عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : رحم الله نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن وأن يتفقهن فى الدين . وصح أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فعرضت نفسها عليه — تريد الزواج به — فقالت ابنته : ما أقل حياءَها . فقال : هى خير منك . عرضت نفسها على رسول الله والحياء خير كله .

خـــلال المنافقين

« عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعَها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدَر ، وإذا خاصم فجر » .

* * *

النفاق شر الأخلاق وجرثومة الفساد ، لا يعرفه إلا أرباب النوايا الخبيثة ، والأغراض الفاسدة ، وما ابتُلى النبى ﷺ فى حياته بمثل ما ابتلى بهذا الصنف من الخلق الذى ابتلى الله به الخيرَ والصلاح فى كل زمان ومكان : كان الكافر واضحاً فى شأنه كله ، واضحاً فى تكذيبه ، واضحاً فى عتوّه ، واضحاً فى حربه ، فكان اتقاؤه سهلاً ميسوراً . أما المنافق فهو سلم فى ظاهره ، حرب فى باطنه ، حلو فى لسانه ، مر فى نواياه ، مشرق فى وجهه ، مظلم فى طويته ، له مع هؤلاء وجه ، وله مع هؤلاء وجه ، لا تُعرف مسالكه حتى يُتقى شره ، وليس له خير حتى يرتجى ، ولولا أن الله العليم بخفايا النفس تكفّل لنبيّه بإكمال الدين وإتمام النعمة ، وكان يكشف له فى سبيل ذلك عن النفاق وغشه ، ومسالكه وأهدافه . لما استقامت دعوته ، ولما تمت

رسالته . وها هو القرآن الكريم ، لا تكاد تجد سورة من سوره لم تضع العلامة الحمراء على بيوتهم حتى لقد نزلت فيهم سورة كاملة ، عرفت بسورة (المنافقون) ، بين الله فيها خلالهم وسوء نياتهم . والنبى ﷺ كان يخشى على أمته ما كان يخشى على نفسه ، ويحب لها ما يحب لنفسه ، ﴿ عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ فبين لها بعض خلال المنافقين كى تحترس منهم وكى لا تقع فى مخالبهم :

الخيانة فى الأمانة : الأمانة كل ما وكل إلى الإنسان حفظه ورعايته من نفس أو مال أو عرض أو علم أو قضاء أو شهادة أو مصلحة . فإهماله أو التهاون فيه أو العبث به أو صرفه إلى غير وجهه خيانة فى الأمانة .

الكذب فى الحديث : أقدر الله الإنسان على التحدث ليصوِّر الواقع بحقيقته للناس ، فإن كان صالحاً أقروه وضاعفوه ، وإن كان فاسداً أصلحوه أو أزالوه . فتصوير الواقع بغير حقيقته مسخٌ لوجه الوجود الحق ، ونشر لسموم الأباطيل ، وتضليل للناس وتحريض على الفساد ، وزعزعة للثقة بين الناس . وتشويش على العاملين الصادقين .

الغدر فى العهد : العهود هى الارتباطات التى تحصل بين الناس على معوج يقومونه أو فاسد يصلحونه أو حق يركزونه ، أو مصلحة

يحققونها ، ومنها ما يأخذه الإنسان على نفسه من فعل الخير والصلاح إذا آتاه الله من فضله علماً أو مالا أو جاهاً أو ولاية والنكوص عن هذه الوعود إيثاراً لمنفعة شخصية أو ركونا للدعة غدر للعهد .

الفجور فى المخاصمة : المخاصمة شأن لابد للناس منه إذ كانوا مطبوعين على اختلاف الآراء ، ولكن يجب أن يكون لها حد تقف عنده فيحل الوئام محل الخصام ، ويتجه الجميع إلى الصالح العام . والاسترسالُ مع الشهوة والغضب بالكيد وخلق التهم وإيجاد المشاكل حتى تذهب الأموال ، وتزهق الأرواح ، وتضيع المصالح فجور فى الخصومة .

* * *

أيها المؤتمنون ، أيها المتحدثون أيها المعاهدون ، أيها المتخاصمون : **اسمعوا قول الله مصدقا لقول رسولكم** ﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولَّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾

دســتور فى كلمات

« عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وزُل مع القرآن أينما زال واقبل الحق ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان بغيضا ، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيبا أو قريبا » .

* * *

أربع وصايا أوصى بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، هى أركان أربعة للدستور الذى يجب على الإنسان أن يسير على هديه .

أولها : أن يعبد الله لا يشرك به شيئا : يعبده لأنه مدين له بالخلق والإيجاد ، مدين له بالهدى والإرشاد ، مدين له بكل نعمة من نعم هذه الحياة ، فى صحته ، فى ماله ، فى أهله وولده ، فى جوارحه ، فى شعوره وإدراكه ، فى عواطفه وإحساساته ، فى منامه ويقظته ، فى حله وترحاله ؛ فمن آمن بالله على هذا النحو ، وتمثله حين يعبده مُنعما بهذه النعم وغيرها فهو جدير بأن يمتلىء به نفسا ، وأن يطمئن إليه قلبا ، وألا يشرك به أحدا .

ثانيها : أن يجعل القرآن إمامه ، يأتمر بأمره ، وينتهى بنهيه ، ويتخلق بخلقه ، ويتدبر هداه ، والقرآن نور مبين ، وهدى ورحمة للعالمين ، هو أسمى تكريم كرم الله به بنى آدم : أخذ بيد العقل فأراه السبيل ، وهيأ له الطريق المستقيم ، وسما به وأعلى من شأنه ، وحكّمه فى كل شىء هدايةً وعلم وتشريع وفن وجمال ما تزال تتكشف يوما بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، فلو أن امرأً جعل هذا الكتاب قبلته ، يدرسه ويتفهمه ويعمل به ويتخلق بخلقه ، ويلتمس منه لذة عقله ، وكمال روحه ، ومدد معرفته ، ورباط قلبه ، وصفاء نفسه ، وثبات إيمانه ويقينه ، ونوره الذى يهتدى به فى كل شأن من شئون حياته ؛ لوجد فيه ذلك كله خالصا سائغاً لا تشوبه شائبة ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثالثها : أن تقبل الحق من حيث أتاك لأن الحق هو حكم العقل وهو الواقع الصحيح فى كل شىء : إذا رأيت النور فقلت هذا ظلام فقد خالفت الواقع وظلمت عقلك قبل أن تظلم الحق ، وإذا نظرت إلى هذه الصنعة المحكمة الشاهدة بعظمة الخالق ، ثم لم تؤمن بالخالق فقد ظلمت عقلك وخالفت الواقع والحق ، إذا خضعت لغير الله ، أو حكمت بغير ما حكم الله ، أو خفت غير الله ، أو عبدت غير الله فقد جنيت على نفسك وعقلك وجنيت على الواقع والحق ، إذا اتبعت الشهوات ، ونزلت على حكم الهوى والرغبات فقد أسأت إلى نفسك

وإلى الواقع والحق . إذا رفضت الحق لأنه جاءك من صغير أو من بغيض ، فقد ظلمت عقلك وظلمت الواقع والحق ، وهكذا ....

رابعها : أن ترد الباطل من حيث أتاك ، لأن الباطل فساد وشر وقبح والتواء ، والعقل لا يكون إلا فى جانب الصلاح والخير والجمال والاستقامة ، وللباطل زخرف يخلب أبصار الضعفاء ، ويخلع قلوب غير المؤمنين ، لأن المؤمن يعلم أن الباطل لا يقوم بقوته ، ولا يبقى لمعنى فيه يستدعى بقاءه ، ولكنه يقوم حيث تقيمه القوة أو الخديعة أو الإغراء ، فإذا زالت هذه العوامل زال وانهار بنيانه ، ولذلك كان أضعف من أن يخدع المؤمن أو يرهب المؤمن ، وإن إبليس هو داعية الباطل وعنوانه وفيه يقول الله عز وجل ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

* * *

أين نحن من هذا الدستور الذى جمعه رسول الله ﷺ فى كلمات وصاغه فى جمل معدودات ؟ فينا من يؤمن بالله إيماناً يجرى به اللسان ، أما القلب فهواء ، وأما الأفعال فنفاق ورياء . فينا من يعبد الله عبادة رسوم ومظاهر وأشكال بينما يعبد الهوى والرغبة والرهبة عبادة إخلاص وخوف ورجاء . فينا من يهجر القرآن ولا يعترف بما له من جلال وجمال . فينا من يعرف حكم القرآن ولا ينزل على حكم

القرآن . فينا من يعرف أخلاق القرآن ولا يتخلق بأخلاق القرآن . فينا من يحكم على الحق بالرجال ، ولا يحكم على الرجال بالحق . فينا من يقبل الباطل لأن القائل به كبير أو قريب أو حبيب ، ومن يرد الحق لأن القائل به صغير أو بعيد أو بغيض .

ألا إن الحياة الطيبة والسعادة المأمونة فى الرجوع إلى هذا الدستور النبوى الكريم : عبادة لله وحده ، وتقديس للقرآن ، واحترام للحق ، واحتقار للباطل . هذا هو السبيل .

كلكم راع ومسئول

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

* * *

حديث عظيم الشأن . له خطره فى تركيز الحياة الاجتماعية . وإسعاد الجماعات البشرية فهو يشير إلى أن الحياة ليست وَحَدَات متناثرة مهملة لا يتصل بعضها ببعض . ولا يُسأل بعضها عن بعض وإنما هى وَحَدَاتٌ متساندة متضامنة . دعامتها التعاون فى القيام بالحقوق والواجبات ، والإحسان فى الأعمال ، والرعاية لما تحت اليد من نفوس وأموال ومصالح . ويشير إلى أن كل إنسان تمَّ رُشْده ، وكملت أهليته قد وُكل إليه شأن فيها يدبره ويرعاه ، كل بحسب مركزه فى أمته وبيئته ، وسيُسأل عنه أمام الله وأمام الأمة وأمام الأبناء

والأحفاد ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم وكلَّ شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ ، وقد صور لنا الرسول هذه الرعاية فى جانبين من جوانب الأمة هما منها بمنزلة القلب من الجسد أو القطب من الرحى . أحدهما : جانب الرياسة الكبرى ويمثلها الحاكم فى مملكته ، والآخر : جانب الرياسة الصغرى ويمثلها أعضاء الأسرة فى البيت .

فالحاكم : وُكل إليه شأن الأمة يدبِّر أمرها ، ويحفظ حقوقها ، ويقيم أَوَدَها ، والعدلَ فيها ، ويُصلح شأنها ، ويُطَمئنها بالقضاء على عوامل الشر والفساد ، وهو مسئول عن كل شيء فيها ، وعن كل فرد منها .

والرجل : وكِلَ إليه رعاية أهله بالإنفاق عليهم وتربيتهم وتعليمهم ، وحسن عشرتهم ، والاقتصاد فيما يملك من أموال حتى لا يتركهم فريسة لغوائل الدهر .

والمرأة : أقامها الله فى بيت زوجها ووكل إليها حسن التدبير ، وإصلاح المعاش ، والهَيْمنة على الأبناء وتعهدهم بما يجعل منهم رجالا مخلصين لبلادهم ، خادمين لأمتهم .

والخادم : أقامه الله فى خدمة صاحبه ووكل إليه العمل فى شئونه الخاصة وكلفه الإحسان ، والأمانة ، والإخلاص .

والولد : جعله الله خلفا عن أبيه : يحفظ المال ، ويرعى الأسرة والكرامة .

وبين هذين الجانبين درجات متعددة فى الرعاية والمسئولية : فالعمدة راع فى بلده ومسئول عن رعيته ، والمدير راع فى مديريته ومسئول عن رعيته ، والمدرس راع فى فصله ومسئول عن رعيته ، والناظر راع فى مدرسته ومسئول عن رعيته ، والصانع راع فى معمله ومسئول عن رعيته .

وهكذا كل رئيس فى مصلحة أو عمل : فكلكم راع ومسئول عن رعيته .

دعائم الحكم الصالح

« عن عامر بن أبى موسى عن أبيه قال لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال لهما : يسِّرا ولا تُعسِّرا وبشِّرا ولا تُنفرا ، وتطاوَعا ولا تختلفا » .

* * *

للحكم العادل الرحيم المثمر دعائم لا يقوم إلا عليها ، ولا يدوم إلا بها ، من أهمها هذه الثلاث التى أوصى بها الرسول واليَّين من ولاته على الأقاليم ، وكانت تلك عادة رسول الله ﷺ « إنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما » : يزود الحكام والولاة بنصائحه ، ويأمرهم أن يَرْعَوا كل ما يُصلح أمر الشعب ، ويُشعره بالإطمئنان والهدوء . ويمكّنه من القيام بواجباته فى الحياة على نحو يحقق له العزة والسعادة والرفاهية .

وأول هذه الدعائم الثلاث « التيسير وعدم التعسير » . وتلك شرعة شرعها الله فى دينه ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ . ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فأجدر بها أن يتخذها الناس أساساً فى دنياهم .

إن الحكم العادل الحاذق هو الذى يعلم أن للشعوب طاقة ،

وللأفراد قدرة ، وللاحتمال نهاية ، فلا يكلف شعبه ما لا يطيق من ضرائب فادحة ، أو نُظم جامحة ، أو قوانين صارمة ، ولا يكبت فى أفراده معانى الحرمان واليأس ، ولا يحجر على حرية القول والكتابة والرأى فيما لا يضر بالصالح العام ، فإن النفوس إذا امتلأت بالكبت ، وشعرت بالضغط ، ولم تجد فيما تراه حقا لها مُتنفَّساً ، لكان أمرها بين اثنتين كلتاهما النار : إما موت الذلة والإرهاق ، والخيبة والإخفاق ، ويومئذ تخور قواها فلا تقاوم ، ولا تنتج ، ولكن تذوب ، وتضمحل ، وتكون غثاء كغثاء السيل تَداعَى عليها الأمم كما تَداعَى الأكلة إلى قصعتها ، وإما عاصفة عاتية ، تزلزل الأمن ، وتنشر الفوضى ، وتفسد النظام !

وإن مجال التيسير أمام الحاكم العادل لفسيح : تخفيف وطأة الحياة على الفقراء تيسير ، محاربة الغلاء تيسير ، العناية الصادقة بمعالجة المرضى تيسير ، إعطاء العاملين حقوقهم تيسير ، فتح أبواب المدارس والمعاهد تيسير ، إصلاح خطط التعليم وتهذيب مناهجه تيسير ، تبسيط الإجراءات الإدارية والقضائية تيسير . وهكذا .

الدعامة الثانية من دعائم الحكم العادل فى نظر الرسول هى : « التبشير وعدم التنفير » فإن الحاكم والرئيس إذا كان طَلق الوجه حلو اللسان ، حريصا على أن تحيا الآمال فى النفوس ، استطاع أن يُثير بواعث العمل ، وأن يُنشِّط إلى الإنتاج ، وأن يضاعف الثمرات ، أمام الحاكم الفظ ، الغليظ القلب ، ذو الوجه العبوسَ ، الذى يعتمد على

الإرهاب والتخويف ، والوعيد والتهديد ، فأجدر به أن ينفر الشعبُ منه ، وتموت فى أفراده دوافعُ الرغبة ، وبواعث الأمل .

أما الدعامة الثالثة فهى شأن من شئون الحكام المتعاونين بعضهم مع بعض : « تطاوعا ولا تختلفا » هذا هو عنوانها الذى صورها به الرسول ، ولا تستطيع أمة يتنازع حكامها ، ويتخاصم قادتها ، ويتخالف أولوا الرأى فيها ، أن تسلك فى أية ناحية من نواحيها سبيلا مستقيما ، ولا أن ترقى إلى أى شأوٍ تبتغيه ، ذلك بأن كل حاكم من هؤلاء الحكام أو القادة المتخالفين ، سيتبعه فريق من الأمة ، فيسرى داء الخصومة ، وتنتقل عدوى التنازع إلى الشعب فى كل مصنع ، وفى كل معهد ، وفى كل متجر ، وفى كل بيت ، ويومئذ تصير الأمة أحزاباً وشيعاً ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ولا أريد أن أستوحى التاريخ مُثُلاً لما تصاب به أمةٌ متفرقة متنازعة متقطعة ، فإن فى حالتنا الراهنة ما يغنى عن كل تمثيل .

* * *

هذه وصية نبيكم وحاكمكم الأول لولاته ، وهى السياسة لمن أراد السياسة ، وهى الرشاد لمن أراد الرشاد .

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾
﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾

إلى حكام الأقاليم

« عن معاذ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم . فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

* * *

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن وزوَّده جرياً على سنته فى تزويد الأمراء والولاة الذين كان يرسلهم إلى الأقاليم بنصائحه الغالية ، وإرشاداته الحكيمة .

فذكر له أولا : الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ، والإيمانُ بالله ورسوله أساس الخير كله ، وأساس الفضائل جميعها ، فلا خير فى عمل ولا خلق ليس مصدرها الإيمان وإنما مصدرها اعتبار من الاعتبارات الدنيوية ، التى لا دوام لها ولا استقرار « ما كان لله دام

واتصل وما كان لغير الله انبتّ وانقطع » وليس الإيمان كلمةً تقال وإنما هو معرفة يقينية تريك جمالَ الله فتستحى أن تحب غير الله ، وتريك جلال الله فتستحى أن تخضع لغير الله ، وتريك نعمة الله فتستحى أن تجحد نعمة الله ، وتستحى أن تتجه لغير الله ، ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

وذكر له الصلاة : وأنها خمس مرات فى كل يوم وليلة ، والصلاة نور لصاحبها وبرهان على صدق إيمانه ، ونجاة له من الكروب والشدائد ، هى سلوة المحزون يخرج بها من هموم الدنيا وأكدارها وهى مراقبة لله تحول بين العبد وبين عصيانه ، وقد كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وكان يقول « جُعلت قرة عينى فى الصلاة » . ويقول الله عز وجل ﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ وقد قرنها الله بالصبر ، وجعلها معه عُدةً يُستعان بها على مشاق الحياة ومتاعبها ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

والصلاة طهرة لصاحبها من أدران الأخلاق الفاسدة وقد شبهها رسول الله ﷺ بنهر يغتسل فيه الإنسان كل يوم خمس مرات ، وفيها يقول الله عز وجل ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وذكر له الزكاة ، والزكاة حق الفقير على الغنى ، ينزع بها الله الشح

من نفوس الأغنياء وينزع بها الحقد من قلوب الفقراء فيلتقى الجميع إخواناً فى الله متحابين فى الوطن .

ثم ذكر له بعد ذلك ملاك الأمر كله : العدل والرفق ، فحذره من أخذ جيِّد الأموال باسم الزكاة ، وحذَّره من الظلم عامة ، وصور له المظلوم حين تنقطع به أسباب الانتصاف ولا يجد ملجأً إلا الله ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت فإذا الحجب بينه وبين ربه الذى يعلم كيف ظُلم ، ويعلم كيف عَجَز عن رد مظلمته ، ويغار عليه ؛ قد تكشفت ، وإذا المسافات قد طويت ، وإذا الدعوة من قلب حار تنفذ إلى أقطار السموات فيتلقاها العدل الإلهى وويل يومئذ للظالمين !

فيأيها الحكام فى الأقاليم ، أيها المديرون والمأمورون والعمد والرؤساء فى المصالح والأعمال :

هذا دستور نبيكم لمن كان يناط به مثل أعمالكم ، فاجعلوه دستوركم ، وكونوا قدوة للناس فيه ، والله الله فى الصلاة . والله الله فى الزكاة . والله الله فى عباد الله !

استباحة الأموال بحكم المناصب

« عن أبى حُميد الساعدى رضى الله عنه قال : استعمل رسول الله ﷺ ابن اللُّتبيَّة على صدقات بنى سليم — أى ولاه جباية الصدقات ممن تجب عليهم — فلما جاء إلى النبى ﷺ وحاسبه قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى ، فقال رسول الله ﷺ « فهلاّ جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا » يريد أن يقول له : على فرض أنك صادق فى أنه هدية فما أهدى إليك إلا بحكم منصبك ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد . فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئا بغير حقه إلا جاء الله يحمله يوم القيامة ، فلأعرِّفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء (الرغاء صوت البعير) أو بقرة لها خُوار (الخوار صوت البقر) (أو شاة تيْعر) (اليُعار صوت الغنم) ثم رفع يديه إلى السماء حتى رؤى بياض إبطيه وهو يقول « ألا هل بلغت !

كلام غنى بنفسه عن الشرح والبيان . وهو مثل حىٌّ قوى يضربه النبى ﷺ من نفسه للخلفاء والولاة من بعده فى مراقبة العمال ، ومحاسبتهم على أعمالهم التى يولونهم إياها فهو ينكر أشد الإنكار على ذلك العامل الذى أقامه فى جباية الأموال ينكر عليه أن يصل إليه شىء من خلق الله لا يكون ذلك إلا بحكم منصبه ، فقد اتخذ منصبه حبالة للإثراء على حساب العمل لله وفى سبيل الله ، ويقول له : لو قعدت فى بيت أبيك وأمك ، ولم تولَّ عملا مثل هذا أكان يعرفك أحد ؟ أكان يهدى إليك أحد ؟ ثم يقوم فيخطب الناس فى مثل هذا الشأن ، فيصوِّر لهم سوء عاقبته ، يوم يأتى كل من أخذ شيئا عن هذه الطريق حاملا ما أخذ على كتفيه ، مفتضحا أمره ، ذائعا بين الخلائق جُرمه ، ومصداقه قوله تعالى فى شأن الغالّ — وهو من يخون فى أموال الله — ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يأْتِ بما غَلَّ يومَ القيامة ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته معذبا به مروعا بصوته ، موبخاً بإظهار خيانته . ثم يشهد النبى ربه بعد ذلك على أنه قام بما عهد إليه من تبليغ الأحكام والتحذير من الطغيان والآثام .

* * *

أما بعد : فإذا كان هذا شأن ما يؤخذ باسم الهدية من أموال الأفراد فما بالنا بما يؤخذ بالظلم ، والرشوة ، والاختلاس ، من نفس أموال الله لتى ربط بها مصالح عباده ؟

فاللهم ارحم عبادك وطهرهم من هذه الأرجاس .

الرسول يحذر المتخاصمين
طرق الخداع والتلبيس على القضاء

كان النبى ﷺ ذات يوم فى حجرة زوجه أمّ سلمة رضى الله عنها فسمع ببابها نزاعاً ارتفعت فيه الأصوات ، وعلا بعضها على بعض فخرج إليها فإذا هم خصوم يتنازعون حقوقاً بينهم ، وقد جاءوا إليه ﷺ ليفصل بينهم فيها ، فابتدرهم بقوله : « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ولعلّ بعضَكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض فأحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

* * *

هذا الحديث يقرر أصولا لما خطرها فى جانب من جوانب هذه الحياة الاجتماعية . فالحياة الاجتماعية لا تخلو من خصومات والخصومات مجال واسع للبغى ، واستجابة الأهواء ، ولابد للخصومات من قضاء يفصل فيها ، ويحسم ما بين الناس من نزاع والقضاء لا يستأصل الشرور والآثام إلا إذا وقع مُحقاً للحق مبطلا للباطل ، منصفا للمظلوم ، رادعاً للظالم . عندئذ تطمئن القلوب ، وتسكن

النفوس ، ويقف كل إنسان عند الحق الذى يعلمه فيما بينه وبين الله ، ويتمتع كل إنسان بحقه الذى يؤمن به . ولهذا كله ينصح النبى ﷺ الخصومَ بأنه — وهو فى موقف القضاء بينهم — بشر مثلهم ، لا يعرف دخائل النفوس ، ولا خفايا الشئون ، فليس له إلا ما ظهر بالبينات ، وقد يكون بعضُ الخصوم من أرباب الحيل والخداع ، وأرباب القوة والبيان ، فيستطيع بقوة بيانه ، وطول مرانه ، أن يستر الحق عن القاضى ، وأن يُلبس الباطل ثوب الحقيقة ، فيقضى القاضى له بما لا يستحقه قِبَل أخيه ، فيأكله زوراً وبهتانا ، ويَصْلى به فى الآخرة لهباً وناراً .

وفى هذا تحذير شديد لهؤلاء الذين يستخدمون طرق التزوير فى الخصومات والدفاع عن الباطل ، طمعاً فى متاع زائل لا يغنى عن الحق ولا عن عذاب الله شيئا .

والرسول الكريم يقرر أنه لا مسئولية على القاضى إذا أخطأ الحق مادام يقضى بما يسمع من حجة ، وإنما المسئولية كل المسئولية على هؤلاء الذين يتخذون الاحتيال سبيلا لأكل أموال الناس بالباطل عن طريق القضاء ، ويعلنهم أن القضاء لا يُحلُّ حراما ، ولا يُحرِّم حلالا ، وأنه يجب على من صدر له حكم عن طريق التزوير والاحتيال أن يراجع نفسه ، وأن يتحلل من ذلك الإثم برد الحق إلى صاحبه ، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

والرسول يضرب — بنصحه للخصوم وتحذيره إياهم أساليب الخداع والتزوير فى التقاضى — مثلاً للقضاة والمحكِّمين فيما يجب عليهم من النصح للخصوم والتحذير من استعمال الخداع والتزوير ، ويقرر أن مهمة القاضى ليست قاصرة على استماع البينات ، فيما يرفع إليه من خصومات ، وإصدار الأحكام فيها بناء على ما سمع ، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يمحَضَ المتنازعين النصحَ ، وأن يرشدهم إلى عاقبة التضليل والاحتيال ، فلعلهم بذلك يوفرون على أنفسهم أسباب اللجاج الدائم ، والشقاق المستمر ، والنفقات الطائلة التى يبذلونها فى توكيل المحامين البارعين ، واستئجار الشهود المزوِّرين ، ولعلهم يحفظون أنفسهم من الإثم الكبير الذى يلحقهم جزاء تضليلهم القاضى ، وجزاء استلابهم حقوق الناس بغير حق .

* * *

أيها المحتالون . أيها المزورون ، ويامن تلبسون الحق بالباطل : قد سمعتم قول الرسول فيكم فاسمعوا قول الله : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ .

السكوتُ عن المنكرات سببٌ فى البلاء العام

« عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال : مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

* * *

يظن كثير من الناس أن هذه الحياة شخصية فردية ، لا يُسأل الإنسان فيها عن غيره ، وإن صح أن يسأل فعن أهله وذويه فقط وليس عليه شيء من حساب إخوانه المؤمنين أو المواطنين ، وبذلك تراهم يؤثرون الانكماش والانقطاع ؛ فلا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يقدمون نصحاً ولا إرشاداً ، ويبررون هذا الموقف السلبى بألفاظ اخترعوها ، وأكثروا من إلقائها بين الناس حتى ظن من لا يعرف الحقيقة فيها أنها من الدين : يقولون : نفسى نفسى . دع

الخلق للخالق . أقام العباد فيما أراد . عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل . والواقع أن هؤلاء بموقفهم هذا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من التضامن بين المؤمنين والتناصح والتعاون على البر والتقوى ، وقد جعل الله ذلك كله شأنا من شئون الإيمان ، وقرره فى كتابه بأبلغ عبارة وأوضح أسلوب ، بل قدمه على الصلاة والزكاة . فقال جل شأنه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ وجاء فى كلام الرسول أنه الدين كله إذ يقول : « الدين النصيحة » والواقع أيضا أنهم بموقفهم هذا يغرسون فى نفوس الناس أن الدين يُقر أفعالهم كيفما كان نظر التنازع إليها : نسمع العامة يقولون : لو كان هذا مخالفا للدين لما سكت عليه فلان وفلان ، ولا حضره فلان وفلان ، وقد كان من أشد ما يخشاه النبى على أمته أن تعتقد ما ليس مشروعا مشروعا ، أو تعتقد المنكر معروفا ، والواقع أيضا أنهم بموقفهم هذا كأنهم يجادلون بغير علم ، أو يدفعون عن أنفسهم بغير حق . فالخلق حقيقة للخالق ولكن الخالق أمر المخلوق أن ينصح أخاه ، وحقاً : أقام الله العباد فيما أراد ، ولكن مما أقام فيه عباده أن يتواصوا بالحق ، وأن يتناهوا عن المنكر . وقد صح عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها ﴿ يأيها اللذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾

وإنى سمعت رسول الله يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وهذا هو نبينا ﷺ يصور لنا سوء عاقبة الذين يختارون لأنفسهم هذا الموقف السلبى ، يصوره فى تشبيه رائع يأخذ بالقلوب ، ويجسم المعنى ، ويقول : إن الفريق الذى فى أعلى السفينة إذا ترك الذين هم فى أسفلها يخرقونها غرقت السفينة وغرق من فيها جميعاً وإذا هم منعوهم سلمت السفينة وسلموا جميعاً .

فيأيها الذين يختارون لأنفسهم موقف الانقطاع والانكماش عن إرشاد الناس ، ويأيها الذين يُثَبِّطون عن الدعوة إلى الله :

إنكم لمسئولون عن أنفسكم وعن غيركم ، فلا تحملوا أثقالكم وأثقالاً مع أثقالكم .

أمــر المؤمن كله خيـر

« عن أبى يحيى صُهيب بن سنان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

* * *

مادام الإنسان فى هذه الحياة الدنيا فهو عرضة للخير والشر ، لما يسوءه ولما يسره ، للفقر والغنى ، للمرض والصحة ، للعسر واليسر ، للاجتماع والافتراق .. وهكذا .

تلك طبيعة الحياة ، وهذه سنة الله فيها ، ومن شأن الإنسان منذ خلقه الله أن يتأثر بالنعمة والنقمة ، وأن يهتز للخير والشر قد تفسده النعمة وتطغيه فيبطر وينسى حق الله فيها ، ويعتز بنفسه ويغتر بقوته ، ولا يطيق لها احتمالا ، فتراه يظلم ويبغى ويقسو ويسرف ويعنُف ولا يقف فى شىء من ذلك عند حد ، كأنه قد ضمن الخلود ، وأخذ على الزمان عهداً ألا تزايله النعماء !

وقد تفسده الضراء فيجزع وييأس ، وتخور قواه ، وتعجز حيلته ،

ويستسلم للمصائب ، ويعيش ما عاش مهموماً مخذولا ، لا يُفيق من الصدمات ، ولا ينهض من العثرات .

هذه هى طبيعة البشر أمام النعماء والسراء ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسا ﴾ .

والرسول ﷺ يرشدنا إلى أن المؤمن له من إيمانه وقاية تقيه من الوقوع فى هذا أو ذاك ، فهو صبور على النعماء والضراء ، يعلم أن كل شيء فى هذا الوجود مَصدرُه رب هذا الوجود ، وأن لهذا الرب العليم الحكيم تصرفا فى كل شأن من شئونه على مقتضى علمه وحكمته ؛ فإن أصابه خير علم أن هذا الخير من الله ، وإن له حقوقا يجب أن يؤديها شكراً لله والتماسا لمرضاته : فى المال حقوق ، وفى الجاه حقوق ، وفى الصحة حقوق ، وفى العلم حقوق وهكذا . وبذلك يكون خيرا فى نعمائه ؛ وإن أصابه شر علم أن لله فى ذلك حكمة ، وأن له — إذا صبر — أجرا عظيما ، فيحتسب ما يصيبه راجيا من الله ثوابه ، متلمسا منه المعونة عليه ، وبذلك يكون خيرا فى ضرائه .

هذا هو شأن المؤمن ، يعيش فى الحالين مطمئنا راضيا قرير العين ، واسع الصدر ، مستقبلا أمره كله فى ثبات وثقة وحزم !

وقد أنبأنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن هذه القوة والمناعة ليست لأحد إلا للمؤمن ، لأنه هو الذى يعرف أن لنعمته

مصدراً فيشكر ، وأن له فى الشدائد ملجأ فيصبر . أما غير المؤمن فهو دائماً فى اضطراب وتبلبل ، تبطره النعمة وتضجره النقمة ، فيعيش ما عاش بين البطر والضجر ، ولذلك كان أمر المؤمن عجباً حيث استطاع بإيمانه ويقينه أن يغلب نوازغ النفس البشرية ، وأن يتسع صدره للحياة فى نعمائها وضرائها على سواء !

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخيرُ منوعاً * إلا المصلين ﴾ : بيَّن الله طبيعة الإنسان إزاء الشر والخير ، واستثنى المصلين ، والصلاة هى صِنوُ الإيمان وعماد اليقين !

* * *

ليتنا نتدبر هذا الهدى النبوى الكريم فنتخذ منه عدة للنعماء والضراء !

ليت أهل الإيمان يعرفون حق الإيمان فيرعَون النعمة ويؤدون واجب الشكر عليها لله الذى أنعم بها ، وفى يده وحده بقاؤها أو زوالها !

ليتهم يعلمون أن الشكر ليس مجرد ألفاظ تلوكها الألسنة وترددها الأفواه ، وإنما الشكر جود وبذل ، وعمل وتضحية فى سبيل الله واهب النعم !

ليت أهل الإيمان يعرفون حق الإيمان ، فيعتصموا بالصبر عند الملمات ، ويلجأوا إلى مفرج الكربات عند الكربات !

﴿ يأيها الناسُ قدْ جاءكم برهانٌ مِن ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمةٍ منه وفضْل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما ﴾ .

الناس أمام الأحداث والفتن

« روى الطبراني بسنده عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز لا يريد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا » .

* * *

لم يضمن الله لأحد فى هذه الحياة الدنيا أن تجرى أموره على نسق واحد ، سداه النجاح ولُحمته التوفيق ، وحواشيه السعادة والرضا والطمأنينة والأمن ، ولو شاء الله لفعل ، ولكنها الحكمة قضت أن يكون الناس بين بسط وقبض ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة وسقم ، وعز وذل ، وفراغ وشغل ، وحرب وسلام ، واجتماع وافتراق . وحب وبغض ، وغير ذلك من أعراض ؛ تحقيقا لضعفهم أمام الربوبية ، وامتحانا لهم بكلا الأمرين من نعمة ونقمة . وتمحيصا للصابرين ، وتمييزا للمنافقين .

هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

والفتن التى يمتحن الله بها عباده كثيرة ذات صور وألوان : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾ ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ وهكذا : فالمال فتنة ، والأولاد فتنة ، والفقر فتنة ، والصحة فتنة ، والمرض فتنة ، والجاه فتنة ، والمناصب فتنة .

والرسول ﷺ يرشدنا إلى أن الناس أمام هذه الفتن ، وتلك الاختبارات الإلهية أصناف :

(١) صنف قوى متين ، يتلقى ما يصيبه بصدر رحب ، وقدم ثابتة ، لا تزعزعها الأهوال ولا تزلزها الفتن ، صابرا مصابرا ذا ثقة بالله ، حتى إذا انجلت غمرته ، وانتهت محنته خرج كالذهب الإبريز أصفى مما كان وأشد جلاء لم يصبه ربد ولا صدأ ، ولم يدركه خور ولا وهن ، فذاك قريع الزمان ، وأخو الإيمان !

(٢) وصنف يتظاهر بالقوة والثبات ، ويتحدث عن الصبر والجهاد مادام فى خير وسلامة وأمن وطمأنينة ، حتى إذا طرقت الأحداث بابه ، أو أطلت عليه فتنة من الفتن رأيته تبدل شخصاً

آخر : تبدلت قوته ضعفا ، وثباته تزعزعا ، وصبره المزعوم جزعاً وجهاده فرارا ونكوصا ، كالمعدن المغشوش تخرجه النار أسود ممتحشا محترقا ﴿ إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ .

ومن عجب أن هذا الصنف من الناس لا يستحيى — إذ أذن الله النصر للمجاهدين — أن يتمسك بأذيالهم ، ويحسب نفسه عليهم ، يريد أن يقاسمهم ثمرات نصرهم ، وفى هؤلاء يقول الله عز وجل ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ يعنى إذا أصيب بأذى فى سبيل الله نظر إلى ما يصيبه من هذا الأذى كأنه عذاب من الله فتحول عما كان عليه ، ونزل عن عقيدته ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ .

(٣) وصنف بين هؤلاء وهؤلاء ، ليس فى قوة الأولين ولا فى انحلال الآخرين ، وأفراده متفاوتون بين هذين قربا وبعدا فمنهم من يقرب من ا لصنف الأول ، فترى الأحداث تبهره ولكنه يفيق سريعا من بَهْره ، وترى الفتن تبرق له ولكنها لا تخطف بصره ، فهؤلاء أولوا بقية من خير وأثارة من بر ، إذا ذُكِّروا ذَكَرُوا ؛ وإذا نُبِّهوا انتبهوا ، وإذا لم يأتوا إلى الحق سابقين ، جاءوا إليه من قريب ، و ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

ومنهم من يُحوم حول الصنف الآخر ، صنف المفتونين المتزلزلين ، وإن لم يرض عنهم ، ولم يأخذ بأسلوبهم ، وهؤلاء على خطر عظيم ، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

* * *

هذه أصناف الناس أمام الاختبار الإلهى ، بينها رسول الله ﷺ وضرب لها الأمثال ؛ فلينظر كلٌّ منكم أين يضع نفسه ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

جـريمة الانتحـــــار

القتل أكبر الجرائم عند الله . وقد نزل فيه من الوعيد ما لم ينزل فى غيره من سائر الجرائم وحسب السفاكين للدماء بغير حق قول الله : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما ﴾ ، وقد كتب الله فى العهد القديم على بنى إسرائيل ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ .

وليس من شك فى أن قتل الإنسان نفسَه نوع من قتل النفس التى حرمها الله ، وهو جدير فى العقل أن يكون أفظع أنواع القتل . ذلك أن حرص الإنسان على حياته أمر طبيعى ليس من شأنه أن تدفعه عليه عوامل الغضب والانتقام أو تُغريه به دراهمُ معدودة أعدت له فى إزهاق نفس بريئة ، ولكن بعض الناس قد يضعف إيمانه ، وتخور عزيمته ، وتُفقد رجولته ، فلا يستطيع أن يتحمل أعباء هذه الحياة فيتملكه الجزع ، ويمتلىء قلبه باليأس ، ولا يوفق إلى فضيلة الصبر والتروى ، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، فيعمد إلى قتل نفسه ، لفقر تحكم ، أو مرض أزمن ، أو زوجة خرجت عن الطاعة ، أو ابنة لعب بها الشيطان ، أو تجارة أصيبت بالكساد ، أو امتحان لم يصحبه

فيه التوفيق . فيعمد إلى نفسه لشىء من هذا فيلقى بها من شاهق جبل أو شجر أو بيت ، أو يلقى بها فى بحر خِضَمّ ، أو يشعلُ بها ناراً ، أو يطعنُ نفسه بسكين ، أو يطلقُ عليها رصاصة ، أو يَرْمى بها تحت قطار أو سيارة ، أو يتناولُ سمّا ، أو غير ذلك ؛ ظنّا منه أو اعتقاداً أنه يتخلص بقتل نفسه من الشدة التى أصابته وضعف عن مقاومتها ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يؤكد ، وهو الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ، أن من يفعل ذلك بنفسه فسيصيبه — بما قتل نفسه — عذابٌ أشدُّ وقعاً وأطول أمداً ؛ فهو لم يُبْقِ على حياته ولم يتخلص من عذابه ، خسر الصفقتين وساءت عاقبته فى الحياتين : « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسَّى سمّا فقتل نفسه فسُمُّه فى يده يتحسَّاه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يَجَأُ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

ولو أن الناس تنبهوا إلى هذه الحياة ، وعرفوا بما يرون ويسمعون من سنتها ؛ لأدركوا أنها بطبيعتها ميدان يلعب فيه بالناس . الفقرُ والغنى والصحة والمرض ، والنجاح والسقوط ، والبغض والحب ، والربح والكساد ، والموت والحياة ، والتقدم والتأخر ، والارتفاع والانحطاط ، وأنها لا تفاجىء الناس بشىء ليس من طبعها — لو تنبه الناس إلى

هذا وعرفوه ، وعرفوا أيضاً أنه لا دوام لحال فيها فكم من فقير أغنت ، وكم من مريض شفت ، وكم من ذليل أعزت ، وكم من ضيق فرَّجت ، لو عرفوا هذا — وما هو عنهم ببعيد — لاستقرت عقولهم فى أدمغتهم ، وقلوبهم فى صدورهم ، والتجأوا إلى مفرِّج الكروب ، وتذرعوا بصبر المؤمنين وجلد الرجال ، وتحملوا أعباء هذه الحياة بحلوها ومرِّها ، خيرها وشرِّها . ولفازوا حينئذ بوعد الله للصابرين ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

والصبر عدة الإنسان فى هذه الحياة : يتقى به شرور المصائب والكوارث كما يتقى به شرور الطغيان بالنعم ، ولا نعلم خلقاً فاضلاً عنى به القرآن وأكثر من الحث عليه والاستعانة به مثل خلق الصبر فقد ذكره الله فى كتابه أكثر من سبعين مرة تنويها بشأنه وبيانا لخطره فى هذه الحياة وحاجة الناس إليه ، وأرشدنا أن النعمة تُطغى الإنسان وتُخرجه عن حد الاعتدال ، فينسى الواجبات ويضر خلق الله ، وأن الضراء توقع الإنسان فى اليأس من روح الله ، وأنه لا نجاة للإنسان فى الحالتين إلا إذا اعتصم بالصبر فقام بحق النعمة فى سرائه وسد باب الجزع على نفسه وارتقب تفريج الله فى ضرائه ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء

مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

* * *

أما بعد فعلى المسلمين إذا أرادوا لأنفسهم أبناء أشداء يحتملون الدنيا ومشاقها أن ينشئوهم على فضائل الدين عامة وأن يغرسوا فى نفوسهم فضيلة الصبر والجلد خاصة حتى لا تسقط بهم الحياة ولا يسقطوا فى الحياة ويعيشوا كراماً ويموتوا كراماً ويبعثوا يوم القيامة كراما .

الدّين حســـن الخلق

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وأنه سئل أىُّ المؤمنين أفضل إيمانا فقال : أحسنهم خلقاً » .

« وعن أسامة بن شريك رضى الله عنه قال : شَهِدتُ الأعاريب يسألون النبىّ ﷺ يقولون : ما خيرُ ما أعطِى العبد ؟ قال : خلق حسن » .

* * *

كان محمد ﷺ هو اللبنة الأخيرة فى بناء الرسل والأنبياء ، ولم يكن هذا البناء العظيم الذى أراد الله أن يقيم للبشرية صرحه بأنبيائه خاصا بالتوحيد والعبادات ، وإنما كان أيضا للخلق الذى لا تحقق للدين إلا به ، ولا صلاح للأفراد ولا للأمم إلا عليه .

لقد دل تاريخ البشرية فى جميع مراحلها على أن السعادة مقترنة بحسن الخلق ، وأن الشقاء والضعف والذل نتيجة لضعف النفوس وانحلال الأخلاق .

وكم رأينا من أمة كثر عديدها ، وقوى عتادها ، وانبثت مصانعها

وازدهرت تجارتها ، واتسعت آفاق حياتها . ثم أصيبت من جانب الخلق فصارت كأن لم تَغْنَ بالأمس .

لذلك تضافر رسل الله أجمعون على إظهار قيمة الخلق ، وبيان منزلته من الدين ، وهذا هو رسول الإسلام يقرر « أن أفضل المؤمنين إيماناً هو أحسنهم خلقاً » وأن « خير ما يعطى العبد خلق حسن » وأن بعثته إنما كانت ليتم بناء « الصرح العظيم » الذى تكافل أنبياء الله ورسله على بنائه ، وهو مكارم الأخلاق ، ذلك بأنها اليَنْبوع الأول الذى يفيض منه كل معنى فى هذه الحياة ، وهى التى تغرس فى قلب المؤمن إيمانه الثابت ويقينه الذى لا يتزعزع ، فإن ذا الخلق الكريم يقول : إذا كان الله قد خلقنى وربانى ، وأنعم علىّ ورعانى ، فما أجدره بشكرى ، وما أحقه بإيمانى وعبادتى ، وليس من مكارم الأخلاق أن أبارزه بالكفران أو بالعصيان .

والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً﴾ فيقرن الإيمان به وطلب عبادته بخصال من حسن الخلق ، ويقرن الكفر به وما أعده من العذاب المهين بخصال من سوء الخلق .

ويقـول فى آية أخـرى «وقـضى ربك ألا تعـبـدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـانا» فيـذكـر الإحسـان إلى الوالدين وهو أبرز مظهـر من مظاهر الإعتراف بالجميل إلى جانب عبادته وتوحيده ويعبر عن الأمرين جميعا بعبارة قوية مشعرة بعظمتهما وجلالهما هى قوله «وقضى ربك».

ويقص علينا وصايا الأولين بمكارم الأخلاق. وما كان يتحلى به رسل الله منها: فيذكر لقمان وصيته «يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عـزم الأمور ولا تُصعّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مَرَحا إن الله لايحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضُض من صوتك».

ويذكر إبراهيم، فيصفه بأنه كان «شاكرا لأنعمه» وموسى فيصفه بأنه «كان مخلصا» وإسماعيل، فيصفه بأنه «كان صادق الوعد» وعيسى، فيحكى عنه تمدحه بقوله «وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا» ومحمداً، فيصفه بقوله «عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم». «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»، «وإنك لعلى خلق عظيم».

هذه الأخلاق هى أساس السعادة وقوام الأفراد والأمم، ولهذا جُعلت أساس الدين فى كل زمان، وقرينة التوحيد والخضوع لله على لسان كل رسول. وقد سئل رسول الله: ما الدين يارسول

الله ؟ فأجاب « الدين حسن الخلق » ، وقيل له : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها فقال : لا خير فيها هى من أهل النار .

فلينظر كل امرىء لنفسه ، ولتنظر كل أمة لأبنائها ، وليقيموا بناءهم على أساس صحيح إن أرادوا الحياة .

الإخلاص أساسُ النجاح

للإخلاص قيمته عند الله ، وآثاره فى الناس : به يتقبل الله الأعمال ، وبه ينظر إليها ويزكيها ، وهو يضفى على القلوب طمأنينة وسكينة ، ويسير بالأعمال فى طريق النجاح والإنتاج ، ويكون حصناً لصاحبه يهديه فى الظلمات ، ويأخذ بيده فى الكروب والملمات ، ويفتح أمامه مغاليق الأمور . وقد كان الإخلاص لهذا محل عناية كبيرة من الهدى النبوى الكريم .

استمعوا إلى رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » فهو يرشدنا إلى أن المظاهر والعناوين التى ينخدع بها الناس ، ويجعلون لها المقام الأول فيما بينهم ، ويمنحون أصحابها ما يمنحون من ألوان الإجلال والتكريم — يرشدنا إلى أن هذه المظاهر لا وزن لها عند الله ، وإنما الوزن الحق لما تمتلىء به القلوب . من نيات صالحة ، ومقاصد شريفة ، وحب للخير ، وبغض للشر ، وأن الإنسان ليس له من عمل حركاته وسكناته ، ولكن له نيته الطيبة ، ومقصده الشريف : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَميَّة ، ويقاتل رياء : أىُّ ذلك يكون فى سبيل

الله ؟ فقال ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وقد يكون العمل الذى يأتى به المرء مما تدعو إليه طبيعته ، أو يقضى به واجبه ، أو تدفع إليه عاطفته ، ولكن الرسول مع هذا يرشدنا إلى أن الإخلاص يجعل من هذا العمل عبادة يثاب المرء عليها ، وقربة ترتفع بها عند الله منزلته : وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعلُ فى فم امرأتك » .

نفقة المرأ ة على زوجها واجبة بحكم الشر ع ، وإطعامها إلى جانب ذلك أمر محبب إلى نفسه ، ومع هذا يقرر الرسول أن ابتغاء وجه الله فى عمل ذلك الواجب المحبوب سبيل إلى الأُجر والمثوبة . وأعتقد أنه لا يوجد تشريع يدفع إلى القيام بالواجب ، ويغرى به ، ويُطمِع فيه كهذا التشريع الذى يجعل من النية والقصد سبيلا إلى مضاعفة الأجر ، وحسن القبول .

سبيل الفلاح

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه مستمعة ، وعينه ناظرة ، وقلبه واعيا » .

* * *

هذا حديث جامع فى معناه ، شاف فى بيانه ، يرشد إلى سنة من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتحول : هى أن سلوك الإنسان فى الحياة ، وصفاته الخلقية التي يتصف بها ، هما السبب فيما يصيبه من نجاح أو إخفاق ، وما يُرزَقُه من سعادة أو شقاء .

يذكر النبى ﷺ الفلاح بهذه الصيغة الجازمة المؤكدة « قد أفلح » ويربطه بصفات يرشد المؤمن إلى التحلى بها والتخلى عن أضدادها : الإيمان الخالص الذى لا يعرف الشك ولا يفسده التردد ولا النفاق ، والذى تظهر آثاره فى كل ما فعل أو ترك ؛ وسلامة القلب وطهارته ، فلا خبثَ ولا حقدَ ولا حسد ؛ وصدقِ اللسانِ ، فلا كذب إذا حدثت ، ولا إخلاف إذا وعدت ولا نقض إذا

عاهدت ؛ واطمئنان النفس ، فلا خوف إلا من الله ولا اضطراب أمام الأحداث ، ولا عجز ولا خَوَر ، ولكن ثبات وشجاعة وثقة وتصميم ؛ واستقامة فى الخليقة ، فلا التواء ولا عدول فى شىء ما عن سواء السبيل .

فإذا جمع الله لامرىء هذه الصفا ثم منحه قوة الملاحظة ، وأدوات الإدراك السليم ، والفكر الصحيح ؛ من أذن سميعة ، وعين ناظرة ، وقلب واع ؛ فقد جَمَعَ له أسبابَ **النجاح** والفلاح !

* * *

يتبين من هذا أن الإسلام لا يربط الفلاح بأنواع العبادات وأصناف القربات الروحية فحسب ، ولكنه يربطه إلى جانب ذلك بأوصاف وأسباب يتطلبها الواقع ، وتوحى بها سنة الله فى الكون وقد شاع هذا المعنى فى الأحاديث النبوية الشريفة :

يُذكَرُ أحيانا بلفظ « الفلاح » كما هنا ، وكما فى قوله ﷺ « أفلح من هدى إلى الإسلام » « أفلح من رُزِق لبًّا » « أفلح من قَنِع بما أتاه الله » .

والسنة فى هذا متآزرة مع القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

ويُذكَرُ أحيانا بلفظ « الرحمة » : « رحم الله امرأً عَرَف قدر نفسه » « رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » « رحم الله والدا أعان ولده على بره » « رحم الله عينا بكت من خشية الله وعينا سهرت فى سبيل الله » .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

ويُذكر أحيانا بلفظ « طُوبى » مثل قوله عليه الصلاة والسلام « طوبى للمخلصين » « طوبى للعلماء » « طوبى لمن ترك الجهل ، وآتى الفضل ، وعمل بالعدل » « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

وفى القرآن الكريم ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسنُ مآب ﴾ .

وهكذا إذا تتبعنا ألفاظ : رحم — وأفلح — وطوبى وأمثالها فى الكتاب والسنة ؛ نجدها لا تعنى مجرد الثواب فى الآخرة ، ولكنها تعنى إلى جانب ذلك ، الفوز بما يترتب على الصفات والأعمال التى ذُكرت معها من نجاح فى الحياة ، وتوفيق فى الحصول على الغايات الشريفة ،

والمنازل الرفيعة ؛ فإذا وجدنا رجلا يصلى ويصوم ويسبح ويأخذ سَمْتَ الصالحين فى زيّه وقوله وقيامه وقعوده ومسيره ولكنه لا يأخذ نفسه بما يربى الله به عباده ، ولا يتسلح للحياة بالصفات الشريفة التى تتطلبها الحياة ؛ فليس عجيبا أن نراه فقيرا أو مخفقا أو مُستضعفا أو محتقرا . ذلك بأنه حفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، والله تعالى يورث الأرض عباده الصالحين ، ويمنحهم النجاح والتوفيق ، لا بأنهم صوامون قوامون مسبّحون فقط ، ولكن بأنهم مع ذلك قد اتصفوا بالصفات العملية التى حث عليها وأمر بها ، تلك الصفات التى حرص عليها المسلمون زمنا فنجحوا ، وأهملوها أزمانا ففشلوا وذهبت ريحهم : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ و ﴿ إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ ﴿ والذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ ﴿ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ .

أولئك هم الصالحون للحياة ، والمفلحون فى الدنيا وفى يوم الدين .

هجرة القلوب

« عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبُها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

* * *

كانت هجرة النبى ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة حادثاً عظيماً فى الإسلام ، شاء الله أن يكون مَوْطنا لكثير من العبر ، ومثارا لكثير من الذكريات الغالية التى تحرص عليها الأمم القوية العزيزة الراغبة فى النجاح والسعادة :

قوم مؤمنون بدينهم ، مطمئنون إلى عقيدتهم ، يَدعون إلى الحق ، ويعلنون كلمة الله إلى الناس ، صادعين بها ، صابرين على الأذى ، فى سبيلها ، فيخرجهم المبطلون من ديارهم وأهليهم وأموالهم إلى ديار ليس لهم فيها أهل ولا مال ولا مُرتزق ، ليشردوا ويموتوا وتموت دعوتهم ، ولكنهم لا ييئسون ولا يحزنون ولا يفُل ذلك من عزائمهم ، ولا يثنيهم عن إيمانهم ، ولا يزلزل من عقائدهم .

وقوم آخرون يستقبلونهم فرحين مكبرين مهللين ، يقاسمونهم بيوتهم وأموالهم ، ويتخذونهم إخواناً لهم ، يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويتعهدون معهم دعوتهم حريصين على نجاحها ، مجاهدين بالأرواح والأموال فى سبيلها ، ذائقين حلوها ومرها ، لابسين نعماها وبؤساها ، يقول قائلهم لرسول الله ﷺ « والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك » فيظهر الله بهؤلاء وهؤلاء دينه ، ويعلى كلمته ، حتى يعم نور الإسلام جميع الأرجاء والأنحاء ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

أية عبر أبلغ من هذه العبر ؟ وأية ذكريات أمجد من تلك الذكريات ؟ . فيها إيمان بالحق عن يقين وإقناع . فيها الثبات على المبدأ . فيها التضحية . فيها الزهد فى المال والأهل والسكن والمتاع والتجارة والمنافع إذا وزنت بالفكرة والعقيدة . فيها الرحلة فى سبيل الخير وارتياد الأرض الصالحة للبذور الطيبة . فيها سلوى المصلحين . فيها دليل عملى على أن الحق لا يعدم أنصاراً . ولا يُغمط فى كل مكان . فيها دليل على أن العاقبة للمتقين ، والنصر للصابرين !

تلك عبر الهجرة ، وهذه ذكرياتها ، ولئن كانت الهجرة قد فاز بها الأولون ، ولم يعد بعد الفتح هجرة للآخرين ؛ إن لنا لنوعاً آخر من الهجرة لم يُغلق بابه ، ولم يمضِ أوانه ، وهو أساس هذه الهجرة وروحها : ذلكم : هو « هجرة القلوب » من الباطل إلى الحق ، ومن

الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الشر إلى الخير وفى هذا المعنى يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

إن الإسلام دين القلوب والنوايا الصالحة ، لا دين المظاهر الكاذبة ، والعناوين الخادعة ، والأقوال البراقة ، ولولا أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة كانت مبنية على أساس وطيد من « هجرة القلوب » وصادرة من أعماق النفوس ، ومقصودا بها وجه الله ومرضاة الله ؛ لما كانت شيئا مذكوراً ، ولما نظر الله إليها . ولما أنجح أصحابها ، وقد حدثنا الرواة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها « أم قيس » فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه « مهاجر أم قيس » . سَموه بهذا الاسم استهزاء به ، وانتقادا لما فعل لأن الروح العامة فيهم كانت هى ابتغاء مرضاة الله تعالى !

وإن بيننا الآن لكثيراً من الناس يشبهون « مهاجر أم قيس » : يصلون كثيراً ، ويصومون كثيراً ، ويزكون ويتصدقون ، ويعملون الصالحات ، ويكتبون ويخطبون ويتحمسون ، ولكنهم إنما يفعلون ما يفعلون ليظهروا أمام الناس بمظهر المؤمنين العاملين ، أو ليقول الناس عنهم أنهم جرآء مصلحون ، أو ليبتغوا بذلك زلفى وقربى عند رئيس أو عظيم .

فلنشل هؤلاء بقول رسول الله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » فمن كان الله قصده فله ما قصد ، ومن كان الناس قصده فله ما قصد ، ومن كانت الدنيا قصده فله ما قصد ، وإن الرجل ليأتي يوم القيامة وقد عمل أعمالا فتلف ويُرمى بها في وجهه ، ويقال له : إنما عملت ليقول الناس : عَمِل ، وقد قال الناس ، واستوفيت بقولهم جزاءك الذي أردت ! ويومئذ يكون شأنه كشأن الذين قال الله فيهم ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ .

هذه هي هجرة القلوب ، وهذا هو شأن المؤمنين ﴿ وما أُمِروا إلا ليعبُدوا الله مخلصين له الدين حنفاءَ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيِّمة ﴾ .

الإخلاص يفرج الأزمات

الإخلاص شأن يسلم به المرء نفسه لله ، فلا يعتمد إلا عليه ولا يتجه إلا إليه ، هو مفزعه فى الملمات ، هو صمده فى قضاء الحاجات .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدتّ عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم : لجئوا إلى الله ، لا بانطلاق الألسنة بألفاظ الدعاء ، ولا بمجرد الطمع فى عفو الله ومعونته كما يفعل كثير من الناس ، ولكن لجئوا إليه بصالح العمل الذى تجردت فيه النية لله وحده .

قال رجل منهم : اللهم كان لى والدان شيخان كبيران وكنتُ لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالا ـــ يعنى لا أسقى قبلهما فى العشىِّ أحدا ـــ فنَأى بى طلبُ الشجر يوما ـــ يريد أن جمع الحطب أخَّره عن موعده ـــ فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غَبُوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر حتى بَرَقَ الفجر ، والصبية يَتَضاغَون عند قدمى ـــ

أى يتصايحون من الجوع — فاستيقظا فشربا غبوقهما ! اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنةُ عم كانت أحبَّ الناس إلىّ فأردتها على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين — يريد أصابتها شدة وفقر — فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ! اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم استأجرتُ أجراء ، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمَّرت أجرَه — يريد نميته بتجارة ونحوها — حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال ياعبد الله : أدِّ إلىّ أجرى فقلت : كلُّ ما ترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال ياعبد الله لا تستهزىء بى . فقلت : لا استهزىء بك ، فأخذه كله فساقه فلم يترك منه شيئا . اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » ... وهكذا يفعل الإخلاص !

هكذا كان الناس

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال الذى اشترى العقار : خذ ذهبك منى ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتعْ منك الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ فقال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية . قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا » .

هذا حديث يجدر بنا أن نتدبره ، وأن نستخلص منه عبرة عظمى ، بالموازنة بين معاملة الناس الآن بعضهم لبعض ، وما كان عليه أمرهم من قبل :

هذان رجلان تبايعا واتفقا وقبض المشترى عقاره ، وقبض البائع ثمنه ، وانتهى الأمر بينهما كما ينتهى بين كل متبايعين ، ولكن المشترى اطلع على جرة مملوءة بالذهب فى العقار الذى اشتراه ، رآها وحده خالياً ليس معه صاحبه ولا أحد من الناس ، وللذهب إغراء وسحر وفتنة ، فهل قال الرجل لنفسه : هذا حظى صادفنى فى عقار اشتريته بمالى ، لم أظلم فيه أحدا ، ولم أغتصبه من أحد ، فهو حلال لى ؟

لا . لم يقل ذلك ، ولم يعتبر الذهب حقاً له مباحاً ، ولكنه اعتبره حقاً لصاحبه البائع وقال لنفسه : إن صاحبى لم يقصد أن يبيع لى هذا الذهب ضمن العقار ، ولو كان يعلمه لما باعنى إياه ، وقام من فوره إلى صاحبه ، فأخبره الخبر ، وقدم إليه ذهبه الذى وجده ، ولكن صاحبه لم يقبل ذلك منه ، ورده عليه قائلا : إننى بعتك الأرض وما فيها ، فخذه فهو حقك ، وهكذا ظل الذهب بينهما متدافعا ، كلاهما يرده عن نفسه ، ويدفعه لصاحبه ، حتى تحاكما إلى رجل من الناس ، وكل منهما فى هذا التحاكم يقصد إلى مصلحة صاحبه ، ويطلب من القاضى أن يبعد عنه هذا الذهب الذى لا حق له فيه . فقضى بينهما هذا القضاء الموفق ، بتزويج ابن أحدهما من ابنة الآخر وأن ينتفعا بالمال على هذا النحو مع التصدق ببعضه على الفقراء والمساكين ليبارك الله فيه .

أخلاق شريفة ، ونفوس طيبة ، دفعت إلى هذا العمل النبيل : أما المشترى فقد دفعته أمانته إلى أن يُبرز ما وجد مع أنه سر لم يطلع عليه أحد ، وهو آمنٌ من أن يُطالب به . أو يُسأل عنه ، ودعته عفته إلى أن يعطى الذهب لصاحبه ، مصرحاً له بأنه لا يرى لنفسه حقاً فيه ؛ وأما البائع فقد حمله خلق الوفاء واحترام التعاقد وخلق السماحة ؛ على أن يرفض أخذ هذا الذهب ، ويقول لصاحبه : بل هو حقك أنت فاحتفظ به لنفسك !

هذه هى القصة التى صور لنا بها الحديث الشريف : كيف كان الناس يتعاملون ، حين كانت النفوس طيبة ، والقلوب متحابة ، والسماحة هى الروح المسيطر على المجتمع ، فأين نحن فى معاملاتنا من هذه الصورة الرائعة ؟

سلوا المحاكم عن القضايا المعقدة والوقائع الملفقة ، وشهود الزور الذين يتبادلهم الخصوم ، ويستعينون بهم على تضليل القضاء واغتصاب الحقوق وأكل الأموال بالباطل .

إن التعامل الآن ليس مبنيا على التناصح والتبادل بالمعروف ، ولكنه مبنى على المخادعة والمغالبة ومحاولة كل طرف أن ينتزع من الطرف الآخر أقصى ما يمكنه انتزاعه بالحق أو بالباطل ، وقد ابتكر الناس ألواناً من وسائل المغالبة والمخادعة واستلاب الحقوق : فى العقود التى يعقدونها ، وفى الشروط التى يشترطونها ، وفى العبارات التى يؤولونها ، حتى ضاعت الثقة ، وفقدت الأمانة ، ونظر كل متعامل إلى من يعامله ، كأنه لصٌّ يخاتله ، ويتحين غفلة منه لاختلاس ماله .

وكم رأينا من خصومات بين الأفراد والأسر يطول بها المدى ، تنفق فيها الجهود الطائلة ، والأموال الكثيرة ، ويشتغل بها القضاة والمحامون ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأجداد ، وإنما مبعثها الطمع والجشعُ ، والحرص على استلاب الحقوق ، وفقدان روح التسامح

والتعاطف بين الناس ، حتى كثر الفساد ، وبغى العباد ، ولو أنصف الناس من أنفسهم ، لاستراحوا وأراحوا وباتوا عن أنفسهم وإخوانهم راضين ، ولو فروا جهودهم وأموالهم لما هو أولى بها من العمل المثمر والإنتاج المفيد .

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

الجهـــاد الأكبر

« روى البيهقى بسنده : أن قوماً قدموا من الجهاد ، فتلقاهم رسول الله ﷺ وقال لهم : مرحباً بكم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر يارسول الله ؟ قال : جهاد النفس » .

* * *

فى نفس كل امرىء داعيان : داع يذكّره بالله ، ويدعوه إلى الخير والهدى ، ويبصّره بالحق والصواب ، وداع يدعوه إلى الهوى والشهوات ، ويزين له طريق الغواية والفساد ، ويصده عن ذكر الله وعن كل معنى شريف فيه كلفة عليه أو تضحية منه . تلك طبيعة الإنسان وفطرته التى فطر عليها ، وفى ذلك يقول الله عز وجل ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ﴾ .

وبين الداعيين دائما حرب عوان ، والمرء منهما فى جهاد وجلاد ، فإذا انتصرت قوة الخير والحق ، وأجابت النفس داعى الله ؛ كان الإنسان فاضلا خيرا يحبه الله ويرضى عنه الناس ، ويرضى هو عن نفسه ، ويشعر بلذة دائمة لا تشوبها شائبة ، ولا يكدرها مكدر ،

وينام ملء عينه هادئا مستريحاً ، ويزاول جميع أعماله مغتبطاً فى إقبال ونشاط ، ويتقى كثيراً من الهواجس التى تثير الهموم وتبعث الأحزان . أما إذا انتصرت قوة الشر ، وأنصت الإنسان إلى داعى شهوته ، ومال إلى هواه ، فإنه حينئذ يكون قد هُزم فى هذا الجهاد هزيمة منكرة ، فيصبح شريراً يرتكب كل شىء ، ولا يتورع عن شىء ، ويظل الناس منه فى بلاء وعناء ، ويظل هو منهم فى كرب وشقاء فيقضى حياته مهموما منكودا مريبا ، يتحاماه القريب والبعيد ، ويمقته الصغير والكبير !

هذا هو الجهاد الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه الجهاد الأكبر ، وأعلمنا أنه أشد وأكبر هولا من جهاد الطعن والنزال ، والموت والقتال ، وإنما كان هذا الجهاد أكبر الجهادين لأنه هو الجهاد الدائم فى كل زمان ومكان ، وهو فرض عين على كل إنسان ، ولأن الرباط والمثابرة فيه أشق وألزم ، ولأن ثمرات النصر فيه أغلى وأكرم !

وسلاح هذا الجهاد هو ما يسمى فى لسان أهل الشرع « بالمراقبة » أو « خوف الله » أو « وازع القلب » وقد يسميه بعض الناس « بالضمير » وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وأمثال هذه الآيات . ويقول الرسول ﷺ « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هذا هو سلاح الدين فى جهاد النفس ، وهو سلاح قوى ماض لا تعرف البشرية سلاحاً أقوى منه ، ولا أمضى ، فى محاربة أسباب الفساد ، ومدافعة عوامل الشر والسوء .

إن للقانون لأثرا ، وإن للسلطان لهيبة ، ولكن القانون قد يُغفل ، وقد يُخدع ، وقد يُستخفى منه ، وقد يؤول ، وقد يحول حائل دون تطبيقه وتنفيذ حكمه ، أما وازع القلب ، أما ضمير الرجل المتدين الذى يعرف ربه ، ويخاف ذنبه ، ويؤمن بالعدل والجزاء ، فهو رقيب لا يغيب ، ولا يخادع ، ولا تجدى عنده التأولات ولا المعاذير ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « البر ما سكنت إليه النفس ، واطمأن له القلب ، والإثم ما جال فى الصدر ، وخفت أن يطلع عليه الناس » « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » .

فاغرسوا — أيها الناس — بذور التربية الدينية فى النفوس ؛ تنبت لكم ثمارا دانية القطوف ، وكونوا خلق المراقبة وجهاد النفس فى كل قلب ، فذلك أجدى وأنجع ، وأهدى إلى سبيل الرشاد .

وجهاد النفس له صور وألوان ، وله ميادين يجب على من أقامه الله فى واحد منها ، أن يثبت فيه ، ويصبر على غمراته : فإذا كنت تاجراً فأنت مطالب بأن تجاهد فى نفسك نزعة الجشع والطمع والغش والاستغلال ، وإذا كنت موظفا فأنت مطالب بأن تجاهد فى نفسك

نزعة الرغبة فى الكسل والإهمال وتراكم الأعمال والاستهانة بمصالح الناس ، وإذا كنت رئيساً فعليك أن تقاوم نزعة الظلم والاستئثار والتكبر على النصح وحب الانتقام ، وإذا كنت مرءوساً فعليك أن تجاهد فى نفسك نزعة النفاق والملق والدس والوقيعة ، وإذا آتاك الله مالا ، وخولك نعمة ، فقاوم فى نفسك البخل والإمساك عن المعروف ، وقاوم فى نفسك الإسراف والترف ، والبطر والأشر ، والجحود والكفران ، وإذا كنت فقيراً فقاوم اليأس والعجز والاستكانة ، واعمل ، وتجمّل ، واحتل للنجاح ، فإن الله لا يضيع أجر العاملين .

وهكذا : للأزواج جهاد ، وللزوجات جهاد ، وللآباء جهاد ، وللأبناء جهاد ، ولكل امرىء جهاد .

رموز السعادة

بحسب المرء فى سعادته التى لا يشوب صفوها كدر ولا لذتها ضيق ؛ أن يكون فى كنف الله وحياطته حيث لا ناصر له سواه ولا معين ، وقد بين لنا الرسول الكريم أن سبيل ذلك يرجع إلى فضائل :

الأولى : النظر فى مصالح المسلمين بما يرفع شأنهم ، ويركز الحقوق بينهم ، ويطمئن الضعيف على حقه ، ويحد من طغيان القوى فى ظلمه .

الثانية : مراقبة الله فى السر والجهر من شاب امتلأ فتوة ونشاطا ، وتمكن من زخارف الدنيا فلم يُسلم نفسه إليها ، بل وقف عند حدود مولاه .

الثالثة : استحضار عظمة الله ، وقوة سلطانه ، وعموم رحمته على عبادة ، من رجل ذكر الله فيما بينه وبين نفسه ففاضت عيناه بالدموع طمعا فى ثوابه ، ورهبة من عذابه .

الرابعة : التجافى عن الركون إلى الدنيا ، والتعلقُ بأماكن العبادة التى تجمع بينه وبين إخوانه المؤمنين ، فتقوى وحدتهم ، وتلتئم كلمتهم .

الخامسة : التعاون على البر والتقوى فى السراء والضراء ، والسر والعلن ، لله وفى الله .

السادسة : عصيان دواعى الهوى والشر ، وقد كثرت منه المغريات من جمال وحب ومال .

السابعة : التماس رضا الله وحده فى إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج .

هذه الفضائل السبع هى رموز السعادة الخالدة عند الرسول ، وقد ساقها مُثُلاً عالية للسعداء :

قال ﷺ : « سبعة يُظِلهم الله يوم القيامة فى ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله فى خلوة ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته إمرأة ذاتُ منصبٍ وجمالٍ إلى نفسها فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما صنعت يمينُه » .

فاللهم اجعلنا من السعداء الذين تُظلهم فى ظلك يوم لا ظل إلا ظلك !

بادروا بالأعمال الصالحة

« روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً : يبيع دينه بعَرض من الدنيا » .

« وعنه رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله . أىُّ الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تَصدّق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمَهِّل حتى إذا بلغت الحلقومَ قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » .

* * *

كثير من الناس يحمل بين جوانحه نفسا خيِّرة ، وقلباً طاهراً يؤثر البر ، ويحب الخير ، ويركن إلى المعروف فى شئون دينه ودنياه ، ولكنه مبتلى بالتسويف والإهمال ، وتأجيل عمل الخير منَ يوم إلى يوم ، لا ينتهز الفرص ، وليس عنده خلق المبادرة والإسراع . تجلس إلى هذا الصنف من الناس ، فتسمعه يُفيض فى وصف أنواع من الأعمال ينتويها ، وألوان من المشروعات يرسمها ، فيعجبك حديثه ، وتروقك

مشروعاته ، وتلمع أمامك آماله ، وتلمس فيه الصدق والرغبة ، ولا يساورك فيه ظل من الشك ، ولكن الأيام تمضى ، والشهور تتوالى ، والأعوام تكر ، وهو كما هو ، ومشروعاته مازالت أحلاماً لم تحقق ، ذلك بأنه — وإن كان ذا نية حسنة ، وآمال طيبة — قد فقد خلق الإقدام ، ولم يُؤت حظاً كافياً من التصميم !

لمثل هؤلاء المترددين المتلكئين يقول رسول الله ﷺ بادروا بالأعمال الصالحة ، وانتهزوا الفرص قبل أن تفوتكم واحذروا الفتن قبل أن تعوقكم ، فكم من عمل صالح فى شئون الدين أو الدنيا وُضعت خطته ورسمت طريقته ، ثم أدركه داء التأجيل والتسويف ، فعدت عليه الفتن الجامحة ، والفتن من شأنها أن تعصف بكل عمل صالح ، فربما قلبت إيمان المؤمن ، وأوهنت عزيمة المصمم ، وبدلت الحق باطلا ، والباطل حقاً ، وحملت صاحب الدين والفكرة والمبدأ على أن يبيعها ويتخلى عنها بعرض من أعراض هذه الحياة .

وليست الأعمال الصالحة هى الصلاة أو الصوم أو العبادة فقط ، وإنما هى كثيرة : إنصافك المظلوم عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . إغاثتك الملهوف عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك ، إحسانك إلى الفقير عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك ، تربيتك لأبنائك وبناتك عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . وتدبيرك لشئون بيتك وأهلك وزوجك عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك ، فصلك فى

القضايا إن كنت قاضياً ، بتُّك فى الشكاوى أن كنت رئيساً . إنجازك للأعمال إن كنت موظفاً . قيامك بالواجبُ عليك فى كل ناحية من نواحى حياتك ؛ كل أولئك أعمال صالحة فبادرها قبل أن تفوتك .

* * *

هنالك طائفة أخرى من الناس تختلف بعض الشىء عن هذه الطائفة الأولى ، فهى لا تحمل هذه النفس البارة ، ولا هذا القلب الطاهر ، ولكنها نفوس ذات أثرة وأنانية : يعيش المرء منهم غنياً والناس من حوله فقراء ، مُترفا والناس من حوله أشقياء ، فلا تتحرك فيه نخوة ، ولا يهتز قلبه برحمة ، وكأنه فى هذا العالم غريب عن أهله لا شأن لهم به ، حتى إذا دبتْ إليه عوامل الفناء وشعَر بأنه قد قارب الأجل ، وسيفارق حياته وماله ومتاعه ، تراه حينئذ — حينئذ فقط — يذكر ما كان ناسياً ، ويظهر ما كان خافياً . ويقول : تبرعت لفلان بكذا ، ووهبت الجمعية الفلانية كذا ، وقد كان لفلان علىّ دين فادفعوه ، وقد كنت ظلمت فلانا فأرضوه ، وهكذا يتصرف تصرف المحسنين ، ولكن فى أموال الوارثين ! فأين هذا ممن يبذل المال على حبه وهو عليه حريص ، وفى صحته وهو بها ذو أمل واقتدار ؟

ألا إن الإحسان لجميل ، ولكن أجمل منه أن تبادر به قبل فوات الأوان ، فتضعه فى موضعه ولو تحملت فى سبيله العناء !

فيأيها المترددون . ويأيها الأثرون :

استبقوا الخيرات ، ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنه عرضها السموات والأرض ﴾ ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ .

المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » .

رجل مؤمن ، طيب القلب ، نقى السريرة ، يعبد ربه ، ويحافظ على دينه ، ويمقت الفساد والمفسدين ، ويحب الصلاح والمصلحين ، ولكنَّ به إلى جانب ذلك ضعفاً فى نفسه ، وتخاذلاً فى شخصيته ، وقصوراً طبيعياً من شأنه أن يزحزحه عن الصف الأول بين صفوف المؤمنين .

تبدو مظاهر هذا الضعف وأماراته فى أحوال هذا الرجل وأعماله : تراه أمام الأحداث خائر القوة رعديداً ، يفر من أول جولة ، ويجزع لأيسر نكبة ، وإذا أحس بأنه مقبل على عمل ذى متاعب أو صعاب ؛ هابه هيبة تفسد عليه أمره ، وتزيد متاعبه وصعابه ، ليس له فى الحياة خطة مرسومة ولا قصد محدَّد ، فهو يُفاجأ بكل شىء ، ويرتجل فى كل شىء ، ويخطىء أو يصيب عن طريق المصادفات ، فإذا

أخفق وفشل ؛ حمل من هذا الإخفاق أعباء فوق أعبائه ، وآلاماً لا يزال ينمّيها ويربيها ، ويشكو منها ، ويتبرم بها ، ويجعلها أمامه دائما ، وفى ذاكرته أبداً ، فإذا هو مرتبك الفكر ، فاتر العقل ، مستطار اللب .

فإنك لتراه فى بيته ، أو فى عمله ، أو بين أصحابه ، فترى رجلاً لا هيبة له إذا قدم ، ولا افتقاد له إذا غاب ، ولا وزن لرأيه ، ولا اعتداد بما يقول .

مثل هذا الرجل لا يصلح لهذه الحياة العاملة الناصبة ، وهو وإن كان قد قال كلمة الإيمان ، واطمأن إليها قلبه ؛ لكن الإيمان لم يرد منه على نفس قوية ، وقلب شجاع ، فلا ينتظر منه أن يكون ذا أثر عملى فى نصرة الدين ، وتأييد الحق ، ومكافحة المبطلين ، ولذلك يعده رسول الله ﷺ مؤمناً ضعيفا ، ليس هو المفضل ولا الأحب إلى الله ، ولا يخليه مع ذلك من الخير لإيمانه ، وطيب قلبه ، ونيته الباطنة فى حب الخير والصلاح ، ومقت الشر والفساد !

إنما يريد الله من المؤمن أن يكون قوياً ذا أثر ظاهر فى الناس : فإن كان عالماً لم يرض منه الاكتفاء بظاهر العلم ، وأيسر الاطلاع والنقل ، وإنما يريده باحثاً متعمقاً منقباً صبوراً على الجهاد فى سبيل الحق ، وإن كان تاجراً لم يرض منه أن يكتفى بالجلوس فى متجره خاملاً ساهيا

غافلاً ،ضعيف الملاحظة ، بطيء التصرف ، وإنما يريده عاملاً ناشطاً جريئاً ، وإن كان زارعاً لم يرض منه إلا أن يكون ساهراً دائب العمل موفور الإنتاج ، وإن كان طبيباً لم يرض منه إلا أن يكون دقيقاً حاذقاً ، وإن كان قاضياً لم يرض إلا أن يكون متيقظاً واعياً ، وإن كان موظفاً لم يرض منه أن يكون ذيلاً وتابعاً وظلاً لسواه ، وإنما يريده قوياً فى عمله ، مبتكراً منتجاً .

وهكذا يريد الله أن يكون المؤمن قوياً فى جميع حالاته : فى نفسه ، فى عمله ، فى فكرته ، فى مبدئه ، فى صداقته ، فى بيته ، فى شئون أهله وأبنائه ، فيما ينزل به من أحداث ، فيما يتطلع إليه من آمال !

وقد هدى رسول ﷺ إلى ما يكون به المرء مؤمناً قوياً :

فهو يقول : « احرص على ما ينفعك » فيذكر كلمة « الحرص » وهى تستلزم القوة فى التناول والمعالجة ، وتستلزم الدرس والنظر لمعرفة ما ينفع والإيمان بقيمته وفائدته ، فإن من عرف أراد ، ومن أراد صمم ، ومن صمم نفذ ، وفى قوله « ما ينفعك » عموم يشمل كل نافع من شئون الدين والدنيا والوطن .

ويقول : « واستعن بالله ولا تعجز » وفى ذلك أمر ونهى يحتاج العامل إلى كليهما ، ولا يستغنى عن أحدهما : هو فى حاجة إلى الاستعانة بربه ليقوى بذلك قلبه ، ويَنشرَحَ صدره ، ويمضى فى عمله

بروح وثابة غلابة ، وهو فى حاجة إلى أن يطرد عن نفسه عوامل العجز ، وما يؤدى إليه الخضوع والاستكانة والتسليم أمام الصعاب والعقبات ، فإن الاستكانة لعوامل العجز مهلكة ، وأن الضعف أمام الصعاب تقوية للصعاب !

ويقول : « وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا » ، فيرشد إلى إغلاق الباب دون الأمانى الفائتة ، فهى بضاعة الحمقى ، ومَشْغلة الضعفاء الذين يأسَوْن على ما فاتهم ، ويكررون ألفاظ « لو » و « ليت » و « لولا » من كل ما يثير الوساوس ، ويبعث الأحزان ، ويفتح عمل الشيطان .

وحسب المؤمن القوى أن يقول فيما فات : هذا ما قدره ربى وما شاء ربى فعل ، فيحسم بهذا آثار الفشل ، ويسحب عليها ذيول النسيان ، ويستأنف ما يأتى من أمره قوياً طامحاً يعرف طريقه إلى النجاح .

الرســول يحث على الزواج

« روى أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ جاءوا إلى بيوت أزواجه يسـألون عن عبادته ، فلما أُخبروا بها ؛ كأنهم تَقَالُّوها ، أى عدّوها قليلة ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ فقال لهم : أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أَمَا والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم لله ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

* * *

هذه مكانة الزواج فى الدين : يعلن رسول الله ﷺ أن الزواج سنته وطريقته وشرعته ، وليس المراد أنه سنة من شاء فعلها ومن شاء تركها ، وإنما هو واجب لا يجوز النكوص عنه ولا التخلى عن حمل مسئوليته ، فمن تخلى عنه فليس من الرسول ، وليس بينه وبين الرسول صلة .

هذا قول الرسول فى شأن قوم تركوا الزواج اشتغالا بالصوم والصلاة وعبادة الله ، فما بالكم بقوم يعرضون عن الزواج لا إيثارا للعبادة ، ولا تفرغا للزهد والتقوى ، وإنما يُعرضون عنه اكتفاء باهتاك الحرمات ، أو تهربا من حمل المسئوليات . يقولون : ما لنا وللزواج وقليلٌ من المال يُغنى الحال ويسد الحاجة ؟ ما لنا ولهذا الحمل الثقيل : زوجة وبنون وبنات وخدم . والكل لهم مطالب فى الصحة والمرض ! خَورٌ فى العزيمة ، وضعف عن تحمل المسئوليات الشريفة ، وفقدٌ للصفات الكريمة التى مُيِّز بها الإنسان ورضى بالمنزلة الدون ، وبالتحلل من قيود الشرف والكرامة ، وانغماسٌ فى حمأة الرذيلة والفجور .

إن الزواج تعاون شريف على هذه الحياة ، وقيام شريف بحقوقها ، وتحمل شريف لمسئولياتها ، به تُحفظ الكرامات ، وبه تُحفظ الأموال ، وبه تكون الوقاية من المقت وسوء السبيل ، به تتبادلون المنافع ، به توجد لكم ذريةٌ طيبة صالحة تكون لكم عزاً فى الحياة وذكراً بعد الممات ، به يجد الإنسان بجواره القريب ، القلبَ الذى يحنو عليه ، والنفس التى تخلص له ، والسلوى التى تنفس عنه ، به ترتبط الأسر ، وتتآلف العائلات ، وتكون الأمة وحدة قوية البنيان ، شديدة التماسك ، تشعر برباط الإيمان الخالد ، يعززه رباط الزواج والمصاهرة .

إن إعراض الشباب عن الزواج قد أفسد الأخلاق ، ودفع إلى التحلل من قيود الشرف والدين ، وسهل طرق العبث بالأعراض ،

وخدش الكرامات : كرامات الأسر . كرامات الآباء والأمهات ، كرامات الدين ، كرامات الوطن !

إن الإعراض عن الزواج هو استجابة لفكرة شيطانية خبيثة ، ونزول على أسباب ومبررات كاذبة فاسدة تنتحلها الثقافات الأباحية الوافدة إلينا ، التى انزلقت إليها أقدام شبابنا تقليداً لقوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، أما سنّة الرسول فقد بينها الرسول بقوله وفعله ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

تخير الزّوجات والقصد فى المهُور

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً » .

وعنه ﷺ أنه قال : « من بركة المرأة سرعة تزويجها ، وسرعة رحمها » يريد الولادة « ويُسْرُ مهرها » .

وفى حديث عن رسول الله ﷺ « لا تُتزوج المرأة لجمالها ، فلعل جمالها يُرْديها ، ولا لمالها ، فلعل مالها يُطغيها ، وإنما تتزوج المرأة لدينها » .

* * *

أحاديث شريفة تذكر للمؤمنين هدياً من هدى رسولهم الكريم فى شئون الأسرة ، تبسط به السعادة أجنحتها على الزوجين ، وتملأ قلبيهما غبطة وهناءة وتيسيراً .

كثير من الناس ينظر إلى الزواج كأنه شركة مالية ، وغرض من أغراض الكسب والانتفاع ، فترى الشاب يقصد إلى الفتاة يتزوجها غير عابىء بأخلاقها ، أو دينها ، أو مقدار صلاحيتها له ، ولكنه ينظر فقط إلى مالها ، أو مال أبيها ، أو مركزه فى الهيئة الاجتماعية ، حاسباً

مقدار ما يعود عليه من وراء هذا الزواج من المال أو الجـــاه .

ونرى من جانب آخر أن أهل الفتاة إذا قصد إليهم شاب ليخطب ابنتهم ؛ سألوا عما يملك قبل أن يسألوا عن سلوكه وخلقه ، ثم أرهقوه وغالوا عليه فى مطالبهم : مهر ثقيل ، و « شبكة » غالية وهدايا لا تنقطع ، ونفقات فى المناسبات المختلفة من أعياد ومواسم ، ونفقات لمظاهر الزفاف والعقد والأفراح ، ينوء بها الكاهل ، ويعجز عنها الاحتمال ، وشروط ليست فى كتاب الله ولا يعرفها شرع الله وتمقتها سنة رسول الله .

هذا كله من شأنه أن يَصرف الناس عن الزواج ، وأن يحوِّله عن الغاية الشريفة التى تقصد منه ، ويجعل كلا من الزوجين ينظر إلى صاحبه ، لا على أنه مُعين له على سلوك سبيل الحياة فى يسر وسهولة ، وغبطة وسعادة ، ولكن على أنه مساوم ومماكس يريد أن يستلب منه لنفسه كل ما يستطيع !

إن الزواج ارتباط روحى ، وقرب قلبى ، ليس المال فيه إلا وسيلة لتنظيم الأسرة فى مبدأ حياتها ، فلا تجعلوه غاية إليها تقصدون ، ولها تبتغون .

إن التشديد على الزوج ، ليس من مصلحة فتياتكم ، ولا من هناءتهن فى حياتهن الزوجية ، فأنتم بذلك تثقلون كاهل الزوج ،

فيضطرب فى حياته ويستدين ما لا طاقة له بسداده ، فتنقبض بذلك نفسه ، ويضيق صدره ، ويرجع بكل ذلك إلى زوجته ، فيدخل حزيناً ، ويخرج حزيناً ، وينظر إليها نظرته إلى من كانت سبباً فى شقائه . فتسوء بينهما العشرة ، وربما انقطع حبل الزوجية ، فتعود الفتاة إلى أهلها كسيرة حزينة ، فتكون ثقلا على أبيها وأمها ، وربما بذلت نفسها ، وباعت كرامتها .

هذا شأن الذين يرهقون الأزواج بالمغالاة ، أما هؤلاء الذين يبحثون عن مال الزوجة وما ترث ، أو عن جاهها وما يفيدون منه ؛ فهم تجار يلتمسون المغانم لا أزواج ! بل يقول فيهم سفيان الثورى : إذا تزوج الرجلُ المرأةَ وقال : أىُّ شىء لها ؟ فاعلموا أنه لص ! وكأنى بأحدهم قد جعل المال والجاه قبلته وغايته فلم ينظر إلا إليه ، قد أورثه الله الفقر أو الذل أو القطيعة ، على يدى زوجة بخيلة أو لئيمة أو شرسة ، فهو منها أبدا فى حرب عوان ، ثم لعل مالها ينفد ، أو جاهها يضيع . فإذا هو صفر من كل شىء ، وإذا حياته هباء فى هباء .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « من تزوج امرأة لعزِّها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بها إلا أن يغض البصر ، ويحصن نفسه ، بارك الله له فيها وبارك لها فيه » .

التشاور بين الأبوين وابنتهما فى شأن زواجها

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « أيّما إمرأة تزوجت بغير إذن وليّها فزواجها باطل ، فزواجها باطل ، فزواجها باطل » .

وعن أبى موسى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لا زواج إلا بولى » .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يارسول الله تُستأمر النساء فى أنفسهن ؟ قال : نعم ، قلت : إن البكر تُستَأمر فتستحى فتسكت . فقال : سُكاتُها إذنها » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « آمروا النساء فى بناتهن » .

* * *

نرى بعض الآباء يستبد بسلطانه الأبوى فى أمر تزويج بناته ، فلا يحسب لابنته حسابا ، ولا يقيم لرأى أمها وزنا ، ويظن ذلك من مظاهر الرجولة الحازمة ، والولاية القوية . فهو لذلك يزوِّج ابنته ممن يشاء ويمنعها ممن يشاء ، وقد يدخل الرجل على أهله وأبنائه ،

فيفاجئهم بأنه ارتبط فى أمر ابنته فلانة ، لتكون زوجة لفلان ، وأعطى فى هذا الشأن كلمة لا سبيل إلى نقضها .

ونرى من جانب آخر فتاة خرجت عن سلطان أبيها وأمها وسائر أسرتها ، وارتبطت بحياة زوجية مع شخص لا يعرف أهلُها عنه شيئا ، فلا يشعر الأب والأم إلا وابنتهما فى عصمة رجل قد ارتبطت به على هذه الصورة المعيبة المثيرة للظنون والقيل والقال .

كلا الأمرين يُعرِّض الأسر لاضطراب قد يؤدى إلى فتن ومصائب لا تقف عند حدّ : فقد تنتحر الفتاة ، وقد تتمرد على هذا الزوج الذى أكرهت عليه ، وقد تقيم أمها حرباً شعواء على الأب وعلى الزوج فيَفْسدُ البيتان ، وتشقى الأسرتان ، وقد يشتد غضب الأب ، ويذكر الكرامة المضيَّعة ، والشرف الذى خُدش ، فيفتك بابنته أو بمن اختارته زوجا لها ، أو يقطع ما أمر الله به أن يوصل من الرحم والبنوة والصهر ، ويحمِّل أمها كثيراً من الآلام باللوم والتعنيف .

والرسول ﷺ يصف بهذه الأحاديث الكريمة أسباب الوقاية من هذا الشر المستطير ، فيأمر الأب بأن يأخذ رأى ابنته فى شريك حياتها ، وأن يأخذ رأى أمها التى هى أدرى الناس بأحوالها ، وينهاه عن إكراه البنت على زواج لا ترتضيه ولا يركن إليه قلبها ، وقد جاءت فتاة إلى الرسول ، فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة ، فجعل

الرسولُ أمرَها إليها ، فلما شَعَرت بحريتها فى أمر نفسها عادت إلى طاعة أبيها فأقرَّت ما صنع ، وقالت : إنما أردت أن أعلم النساء أنْ ليس للآباء أن يكرهوا بناتهن !

ويعلن إلى جانب ذلك أن أية امرأة تزوجت بغير إذن وليها فزواجها باطل ، ويكرر ذلك ثلاثا ويقول : لا زواج إلا بولى ، فهو بهذين يحفظ للأب سلطته الأبوية ، وكرامته فى أسرته ، ويُعْنَى بحفظ حياء الفتاة ، ويصون أدبها وسمعتها ، مع تمكينها من فرصة الإعراب عن رغبتها والعمل بمقتضاها .

هذا هو السياج الذى يحفظ الأسرة من التفكك ، ويقيها شر العواصف ، ويمكنها من القيام بمهمتها فِى المجتمع ، وإن رسول الله ﷺ ليتجه بعد هذا إلى أصحاب الشأن فى أمر الزواج ، مرشداً إياهم إلى أساس الاختيار الذى يحقق سعادة الزوجية ، فيقول :

« إذا أتاكم من ترضوْن دينه وخلقه فزوجوه ، إن لا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

للخاطب أن يَرى مخطوبته

عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ « انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

« وعن جابر قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إذا خطب أحدُكم المرأة فقدرَ أن يَرى منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فليفعل » .

وعن محمد بن مَسلمة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا ألقى الله عز وجل فى قلب امرىء خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها » .

وعن أبى هريرة : كنت عند النبى ﷺ ، فأتاه رجل ، فأخبره أنه خطب امرأة من الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : أنظرتَ إليها ؟ قال : لا . قال : فاذهب فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً .

* * *

ترى الشريعة الإسلامية ، أن رباط الزوجية ميثاق غليظ ، وعهد قوى بين الزوجين . به ترتبط القلوب ، وتختلط المصالح ، ويندمج كل من الطرفين فى صاحبه ، فيتحد شعورهما ، وتلتقى رغباتهما . ولهذا

طلبت الشريعة الإسلامية ممن يريد الزواج ، أن يتعرف بمن يريد أن يرتبط بها ، تعرُّفا يرشد إلى اتجاهات القلوب ، وإن الأرواح — كما قيل — جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وللناس فى تعرف الخاطب بمخطوبته ، وفى مدى هذا التعرف عادات مختلفة : فيرى كثير من الشرقيين ، وبخاصة سكان الريف والقُرى ، أن رؤية الخاطب مخطوبته أمر منكر ، لا يسمح به شرف الأسر ، ولا الغيرة على الكرامة والعرض ، ويرون أن التعارف سبيلُه الوصف من جارة أو قريبة للمخطوبة . ويرى الغربيون ، ومن يقلدهم من الشرقيين ، أن سبيل ذلك ، العشرة الطويلة ، والاختلاطُ الكثير الذى يسبرُ به كلٌّ من الطرفين غَوْرَ صاحبه ، ويعرف كامنَ أخلاقه ، ولا ريب أن كلا من هاتين العادتين بعيد عن الجادة ، فهما فى طرفى الإفراط والتفريط ، فإن فى مفاجأة كل من الزوجين لصاحبه من غير أن يسبق بينهما تعارفٌ ما ، تعريضَ الحياة الزوجية للانحلال فى أول أمرها إذا لم تأتلف القلوب وتسكن الضمائر . وإذا كانت هذه العادة فيها من الغلظة ما يقضى على الأسر فى مبدأ أمرها ؛ فإن فى العادة الأخرى المقابلة لها شرا مستطيرا ، وقد يكون فيما نقرأه ونسمعه كل يوم فى حوادث الخاطبين والمخطوبات — وقد رفعت بينهما الحجب ، ومُكنا من الاجتماع فى الأسفار والمتنزهات — ما يغنينا عن التصريح بالآثار السيئة لهذه العادة التى تودى بالشرف والكرامة ، والتى كثيرا

ما تسبب إعراض الخاطبين عن المخطوبة . وإذا كانت الفضيلة وسطاً بين طرفين هما رذيلة ، وكان اللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين الفَرث والدم ؛ فإن أعدل الآراء فى تعرّف الخاطب بمخطوبته ، هو ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، وتضمّنه إرشاد النبى الكريم ﷺ ، فى هذه الأحاديث التى رويناها لكم وهو : أن يَرى كل منهما صاحبه ، وأنه لا بأس أن يجتمعا المرة أو المرّات ومعهما بعض الأقارب ، وحسبنا فى هذا قول النبى ﷺ للمغيرة : « فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما » أى تحصل بينكما الموافقة والملاءمة . وهذا إشارة إلى روح الألفة التى تبنى عليها سعادة الحياة الزوجية .

هذا هو حكم الشرع ، وهدى الرسول فى أدب الخطبة ، وهو محقق للغرض . بعيد عن الشر . فليعتبر به هؤلاء وهؤلاء .

فياأيها الجامدون : خففوا من غيرتكم ، ولا تزجُّوا بفتياتكم فى ظلام قد لا يشرق عليهن نور من أفقه ، وياأيها المسرفون : لا تتركوا الحبل على الغارب ، فإن الشباب جنون ، والعواطف دفّاعة ، والكرامة أعز شىء عند الناس .

إلى الأزواج

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنة ــ يعنى لا يُبْغِضها ــ إن كره منها خلقا ؛ رضى منها غيره » .

« وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

* * *

إن « الزوجية » لا تؤدى غايتها ، ولا تحقق الأغراض السامية المقصودة منها إلا إذا ترابط الزوجان وتفاهما واحترم كل منهما حقوق صاحبه ، وقام بواجبه نحوه فى صدق وبر وإخلاص ؛ ولم يشرع الله الزوجية لتكون شركة جافة لا همَّ لأصحابها إلا أن يحقق كلُّ واحد منهم مصلحته الخاصة ولو على حساب الآخرين !

لذلك يتجه رسول الله ﷺ بالنصيحة والإرشاد إلى الأزواج والزوجات جميعا ، ويضع لهم الدستور الذى على أساسه تُبنى البيوت وتسعد الأسر ، ويصلح النسل وتقوى الأمة .

وهذان حديثان كريمان ينبه رسول الله ﷺ فيهما الأزواج إلى أمرين هما سر السعادة الزوجية ، وهما أهم ما يُطلب من الرجل .

يقول لهم : لا توجد امرأة إلا ولها بعض المزايا ، وفيها بعض العيوب ، وإن من التمس امرأة كاملة فى جميع النواحى ؛ فقد التمس محالا : وهب الله هذه حظا من الجمال وإن كان فى خُلقها شىء ، ووهب هذه حظا من الخُلق وإن كان فى جمالها شىء ، وفاوت بين هذه الحظوظ والأقسام كما قضت بذلك مشيئته ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ .

هذه حقيقة من عرفها استراح وأراح ، وأمكنه أن يغض عن العيوب المحتملة بجانب المزايا ، وأن يغفر بعض نواحى الضعف لما يجبرها من نواحى القوة ، وهذا هو معنى قوله ﷺ « إن كره منها خلقا رضى منها غيره ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ .

ينسى بعض الأزواج هذه الحقيقة الواقعة ، فيركز اهتمامه بناحية الضعف فى زوجته متناسيا كلَّ المحاسن فيُشقيه ذلك ويُشقيها ، يَظَل من ناحية يُجسِّم هذا العيب ويتتبع مظاهره ويتألم له حتى ينغِّص على نفسه حياته ، ويغرسَ فى قلبه كراهية زوجته ويظهر ذلك فى تصرفاته

معها قصداً أو عفواً فتتألم هى أيضا من ناحيتها ، وتبادله كرها بكره وإيلاما بإيلام ! وحينئذ يدب دبيب الخلاف ، وتسرى عوامل الشقاء فإما اعتلال بعد ذلك وإما انحلال .

ويقول رسول الله ﷺ للأزواج أيضا : إن الخلق الكريم فى معاملة الناس عامة هو علامة الإيمان الكامل ، لأنه دليل على الصفاء النفسى ، والتماس لإحسان الله بالإحسان فى معاملة خلقه ، وإذا كان هذا هو شأن الخلق الكريم فى الصلات العامة بين الناس بعضهم وبعض ؛ فأولى للزوج ثم أولى أن يتمسك به فى أهم صلة وأقوى صحبة ، وهى صلة الزوجية ، ولذلك يقول الرسول « خياركم خياركم لنسائهم » وفى القرآن الكريم ﴿ ولا تنسَوا الفضلَ بينكم ﴾ وقد كان رسول الله ﷺ أكرمَ الناس مع أهله وأرفقهم بزوجاته : ما رؤى متجهما فى وجه إحداهن ، ولا غاضباً غضباً يخرجه عن سكونه ورحمته ، ولا سبَّاباً ولا فاحشاً ، ولا محتقراً لطعام ، ولا مُؤثِراً به نفسَه ، ولكن ما رضى عنه أكله ، وما كرهه تلطف فى رده ، وما غاب لم يسأل عنه .

أيها الأزواج :

هذه هى أقوال نبيكم ، وهذه هى أفعاله ، و ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ فاستوصوا بالنساء خيرا ، لا تستكبروا

عليهن ، ولا تَصْخَبُوا فى وجوههن ولا تُبخلوا ولا تستأثروا ، ولا تُعنِّفوا فى الصغير والكبير ، ولا تحاسبوا على الفتيل والنقير .

ارحموا النساء فلا تكلفوهن فوق طاقتهن ، ولا تأمروهن بما ليس فى استطاعتهن ، ولا تتهموهن بما ليس فيهن ، ولا تهملوا شأنهن وشأن أولادهن ، ولا تتحكموا فيهن لمجرد الرغبة فى إظهار السلطة وتنفيذ الكلمة .

إن النساء أمانات فى أيديكم ، وإن الله قد استرعاكم هذه الأمانات ، فصونوها وأحسنوا رعايتها يحسن الله إليكم .

العدل بين الزوجات

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحدُ شِقّيه مائل » .

* * *

جاءنا كتاب مؤثر من سيدة لم تذكر اسمها تقول فيه : « إنها عاشت مع زوجها عمراً طويلا فى حياة رغْدة سعيدة يرفرف عليهما علم الهدوء والمحبة والاستقرار ، لا تنقم منه شيئاً ، ولا ينْقم منها شيئاً ، ولكنها فوجئت منذ مدة بزواجه من امرأة أخرى ، فاستأثرت به هذه الزوجة الجديدة حتى أنسته زوجته الأُولى ، وأنسته ذلك العهد الطويل الذى قضاه معها هانئا مغتبطاً ، تحفظه غائباً وحاضراً فى ماله وشرفه وبيته وأولاده ، وقد أصبح قاسياً عليها ، مهملاً شئونها ، لا تراه إلا لماماً ، ولا تشعر من جانبه بشىء من العطف الذى كان يغمرها به من قبل ، وطالما استعطفته فلم يعطف ، وطالبته بالعدل فلم ينصف ، وذكّرته الله والحقوقَ وما بينهما من العهد والولد فلم يَثنه ذلك عما هو سادر فيه من التنكر والقطيعة » !

جاءنا هذا الكتاب المؤثر ، وإنا لنعلم أن فى مجتمعنا كثيرات من النساء يشبهن هذه الزوجة المسكينة ، وأن ذلك داء دوىٌّ له آثاره السيئة ، ومضارُّه الكثيرة : يعيش الرجل مَطْلَعَ حياته مع زوجة مخلصة يرتضيها ، تقاسمه سراءه وضراءه ، وترضى بقليله وكثيره ، وتعينه على ابتناء مجده ، وتدبر له شأن بيته ونفقته ، وربما تجاوزت عن كثير من مطالبها ورغباتها رفقاً به ، واقتصاداً فى ماله حتى إذا ارتفع قدراً ، أو زاد مالا ، أو لاح له مغنم من أفق جديد تنكر لهذه الزوجة البارة ، وهضمها حقوقها ، وأذاقها مرارة الحرمان . وآلام النكران !

من حق الرجل أن يتزوج ، وقد أباح الله له التعدد رعاية لمصالح وأغراض شريفة ، ولكن وراء هذا الحق واجباً ، عليه أن يرعى فيه ربه ، ويراقب نفسه ، فإن لم يفعل فقد أغضب الله ، وجار على الحق ، وتنكر للوفاء !

ذلك الواجب هو العدل بين الزوجات : به تصلح الشئون ، وتستقر البيوت ، وتجتث العداوات ، ويزول كثير من أسباب الشقاء !

لذلك أمرنا رسول الله ﷺ بالعدل بين الزوجات ، وحذرنا من الظلم والجور فى شأنهن ، مبينا لنا أن صاحب الزوجتين كذى الشقين ، لابد له من توازنهما وإصلاح شأنهما ، وأن من جار على إحدى زوجتيه ليُرضى الأخرى ، فسيجىء يوم القيامة وأحدُ شقيه

مائل ، وهذا تمثيل بارع رهيب لما يكون من عاقبة الظلم والجور يوم القيامة .

ويقول الله عز وجل : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ والمعلقة هى التى يظلمها زوجها ويحرمها عطفه ، فلا تعرف لها حالة تستقر عليها : لا هى بالزوجة ، لأنها لا تنال حقوق الزوجة ، ولا هى بالمطلقة فيغنيها الله من سعته !

ولقد كان رسول الله ﷺ يعدل بين زوجاته فى المبيت ، وفيما يعطيهن من النفقة والعطاء . وكان إذا عزم على سفر وأراد أن يستصحب إحداهن معه ، أجرى بينهن قرعة ، فمن صادفها الحظ أخذها معه ، وكان يقول : « اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك » يعنى أنه عدل بقدر ما يستطيع فى النواحى التى يملكها وفى قدرته أن يعدل فيها ، أما محبة القلب ؛ فتلك من الله ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . والعادل لا يجعل عاطفته سبباً فى ظلم غيره ، واهتضام حقوقه ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها أحبَّ نساء النبى إليه ، ومع ذلك لم يكن يميزها على غيرها ، ولما مرض كان يُطاف به محمولا فى كل ليلة إلى إحداهن ويقول « أين أنا غداً ؟ » حتى قلن له ذات يوم « يارسول الله . قد أذنَّا لك أن تكون فى بيت عائشة ، فإنه يشق عليك أن تُحمَل فى كل ليلة » فقال : « وقد رضيتن بذلك ؟ » قلن : نعم ، قال : « فحولونى إلى بيتها ! » .

أيها الأزواج :

هذا هو المثل الأعلى للعدل واحتمال المشاق لتوفية الحقوق ، فاجعلوه أسوتكم يصلح الله بالكم ، ويُذهب أضغانكم ، ويَشف صدور قوم مؤمنين .

إلى الزوجـــات

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد ؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظم حقه عليها » .

« وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت ، قال رسول الله ﷺ : أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

* * *

حديثان كريمان يبينان حق الزوج على زوجته ، ويرشدان النساء إلى ركنين عظيمين هما أساس وطيد للسعادة الزوجية ، وعماد متين فى حياة الأسرة .

هذان الركنان هما : طاعة الزوجة لزوجها ، والعمل على كل ما يرضيه .

إن الزوج هو الذى يرعى الزوجة ويحميها وينفق عليها من ماله ، إنه عزها الذى تعتز به ، ونعيمهاالذى لا تذوق السعادة والهناءة إلا فى جواره ، إنه هو الذى هيأه الله للسعى والعمل وتحمل المشاق ومواجهة الصعاب ، فمن حقه أن يكون هو رب البيت ورئيسه المطاع ، ومن

واجب المرأة أن تتقبل هذه الرياسة ، بل هذه الرعاية ، راضية مغتبطة ، لا تجد فيها غضاضة ، ولا تبدى منها تبرماً ، هذا هو الوضع الصحيح الذى تصلح عليه الأسر ، وتستقيم به البيوت ، فإذا عُكس هذا الوضع فقد عُكست الطبيعة ، وخولفت الفطرة . قال الله تعالى : ﴿ الرجالُ قوَّامون على النساء بما فضل الله بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ . ﴿ ولهنَّ مِثلُ الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهنَّ درجة ﴾ .

وقد عبر الرسول ﷺ عن طاعة المرأة لزوجها وامتثالها لأمره بأقصى ما يتصور من معانى الخضوع لبشر : إذ يطلب منها خضوعاً يكاد يقرب من السجود ، وليس ذلك إذلالا للمرأة ، ولا إهداراً لشخصيتها ، ولا إنكاراً لشأنها وقيمتها فى حياة الأسرة ، ولكن لأن مصلحة البيت ، ومصلحتها هى ، لا تقومان إلا على هذا الأساس ، فإن المرأة التى يشعر الرجل معها بأنه صاحب الرأى والتوجيه ، هى التى تكسب قلب زوجها ، وهى التى تنزع منه فكرة التحكم والاستبداد إذا حدثته نفسه بها ، وقد عبرت عن هذا المعنى أسماء بنت خارجة إذ تقول لابنتها وقد زوَّجتها : يابنية كونى له مهاداً ؛ يكن لك عماداً ، وكونى له أمة ؛ يكن لك عبداً !

أما تلك التى تعاند زوجها ، وتستكبر على سلطانه ، وتأخذها العزة بالإثم إذا نقدها أو راجعها ، وتجادل فى الصغير والكبير تعنتاً

وإرهاقاً ؛ فإنها تفتح على نفسها أبواباً من الشر ، وتبذر فى بيتها بذور الشقاق والخلاف !

وإذا كانت الطاعة حقاً للزوج على زوجته فرضه الله ، وقضت بـه الطبيعة والفطرة ؛ فإن من حقه عليها أيضا أن تعمل على مرضاته ، وأن تتجنب كل ما يغضبه ويسىء إليه فى نفسها ، وفى أولادها وفى بيتها ، فإن الله قد جعلها سكناً له ، واطمئناناً لقلبه ، ومتاعاً لروحه ، وإن الزوجة التى تقصد إلى توفير هذه المعانى لزوجها ، وتبذل كل ما تستطيع لإسعاده وإرضاء نفسه ، لهى الزوجة التى تؤدى رسالتها فى الحياة على الوجه الأسمى ، وتقوم لأمتها بأعظم خدمة ، وكم من رجال نبغوا وأفادوا أممهم ورفعوا شأن بلادهم فى ميادين العلم والعمل والاختراع والسياسة والوطنية ، لأن من ورائهم زوجات مَعنيات بهم ، عاملات على إسعادهم ، حريصات على إرضائهم ، لذلك كان صنيع المرأة فى هذا الشأن جديراً بالإكبار ، وجديراً بالجزاء الأوفى عند الله ، وقد أنبأنا رسول الله ﷺ أن هذا الجزاء هو الجنة التى أعدت لأهل الإيمان والإحسان !

* * *

أيتها السيدات :

هذا هو أدب النبوة للزوجات : طاعة وخضوع يستقر بهما النظام

ويصلح عليهما أمر البيت ، وعمل على إرضاء الزوج تستدام به محبته ، ويرجى عند الله جزاؤه ، وليس على هذه السنة المستكبرات على الأزواج ، ولا المتبرمات بأوامرهم عناداً وإصراراً ، ولا المناقشات المجادلات فى الواضح وغير الواضح ، ولا المقلدات فيما يضر ولا ينفع ، ولا المكلفات بما يرهق ويعجز ، ولا الأثرات ولا البطرات ، ولا المنكرات للجميل ، ولا المتناسيات للإحسان !

أبغض الحلال إلى الله الطلاق

« عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

« وعن ثوبان ، رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »

* * *

شرع الله الزواج لمقاصد سامية ، وأغراض شريفة ، وجعله نعمة من نعمه العظمى ، وآية من آياته الكبرى ؛ به تتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، وعمارته لهذا الكون ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ﴿ وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .

ولن يكون الزواج سكنا للزوجين ، ومودة ورحمة بينهما ؛ إلا إذا أقاما حدود الله ، وأدى كل منهما واجبه لصاحبه ، أما الزواج الذى يفقد هذا المعنى ، وينظر فيه كل من الزوجين إلى صاحبه كأنه غريمه

أو خصيمه ؛ فهو أشبه بقيد كريه ضم اثنين على الرغم منهما ، فهما جاران بالجسم ، متنافران بالروح !

ولذلك حرص الشارع الحكيم على أن نبقى العلاقة بين الزوجين قوية متينة ، وأن تظل الحياة فى بيتهما صافية سعيدة ، فأرشدنا إلى أمور :

منها أنه أمر أولى الشأن ، إذا خافوا مغبة الشقاق والنزاع بين الزوجين ، أن يبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، ومن شأن هذا الإجراء أن يكون علاجا تُتلافى به أسبابُ الشر ، وعوامل الفساد ، فكم من خلاف قد انبنى على أسباب تافهة أو أوهام خاطفة ، لا تلبث أن تزول إذا عرضت على العقلاء فى جو من الهدوء والإخلاص .

ومنها أنه أمر الزوج بحسن المعاشرة ، وألا ينساق مع مجرد العاطفة فيكره زوجته لما يتوهمه من عيب فيها ، أو لما يجسّمه الشيطان من نقص قد يُغتفر بجانب المزايا ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ .

ومنها أنه نَفَّر الزوجين كليهما من الطلاق ، فأنبأنا بأنه بغيض إلى الله لا ينبغى للرجال أن يسرفوا فيه ، ولا للنساء أن يطلبنه من أزواجهن من غير بأس ، لأنه رفض للنعمة ، وقطع للصلة ، وإفساد علاقة قائمة مستقرة ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ .

ولكن الشارع الحكيم مع هذا قدر أن العشرة بين الزوجين قد تسوء ، ويتفاقم شرها ، وربما ارتُكبت بسبب ذلك محرماتٌ كالظلم والقذف والإيذاء والشَّغب بين الأسر ، فشرع الطلاق تلافيا لذلك ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ .

هذا هو الطلاق فى أصله ومشروعيته ، ومن الواجب ، ومن الخير للناس ، أن يبقى فى هذه الدائرة التى رسمها الله ، وأن ننظر إليه كعلاج أخير لمرض قد استعصى على جميع ألوان العلاج ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

* * *

لقد تعدينا فى الطلاق حدود الله : اتخذه كثير من الأزواج هزواً ولعباً ، يحلفون به على صحة الأخبار أو عدم صحتها ، ويروّجون به للسلع ، ويجعلونه وسيلة لحمل الناس على ما يريدون ، وقد انساقوا فيه مع الغضب أحيانا ، ومع الهوى الفاسد أحيانا ، وهان أمره حتى أصبحت الأسر مهددة بالانحلال ، والبيوت مهددة بالخراب ، والنسل مهدداً بالتشرد أو الفساد ! وإننا لنرى الرجل يتزوج اليوم ليطلق غدا ، ويطلق اليوم ليتزوج غدا ، كأن الزواج رداء يستبدله كلما شاء ، وإن هذا والله لظلم عظيم !

وقد اتخذته كثيرات من النساء أيضا هزوا ولعبا ، فترى الواحدة

منهن تسأل زوجها الطلاق ، أو تطالبه به أمام القضاء ، لسبب تافه لا يبرر طلبها ، وقد يكون ذلك لأنها تكلفه ما لا يطيق ، أو تتناسى ظروفه وأحواله ، أو تحاول أن تفرض عليه مشيئتها ، أو ما إلى ذلك مما تكون هى سبب النزاع فيه !

أيها الأزواج والزوجات :

احفظوا نعمة الله عليكم ، ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾

حق الولد على أبويه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ يُقبّل ولده الحسن فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه الصلاة والسلام : من لا يَرحم لا يُرحم » .

« وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » .

* * *

أولادنا هم ثمرات حياتنا ، وفلذات أكبادنا ، وزينتنا ، وعدتنا ، وورثة ديارنا وأموالنا وأسمائنا ، وذكرانا من بعدنا !

أولادنا هم أعز الأمانات لدينا وأغلاها ، وأجدرها بأن نحفظها ونرعاها !

أولادنا هم الرجال والنساء فى مستقبل وطننا وأمتنا : غدا يكون منهم الرؤساء والقادة والحماة والرعاة والعلماء والأدباء والشعراء وأرباب الفنون وحملة الأقلام والآباء والأمهات !

لذلك يرشدنا رسول الله ﷺ فى شأنهم إلى واجبين : أن نجعلهم موضع عطفنا وحبنا ، وأن نربيهم ونصنَعهم على أعيننا ، لنحقق بذلك

سعادتهم وسعادة الأمة بهم ، ونقيهم عوامل الشر والفساد فى حاضرهم ومستقبلهم .

إن الولد إذا فقد عطف أبيه أو أمه أظلمت نفسه ، وخبت شعلة الذكاء فيه ، وأغرته نفسه بالتمرد والعقوق ، وربما انحرف إلى طريق الغواية .

وإذا كان الأقرع بن حابس — وهو عظيم من سادة العرب — يتفاخر بأنه رجل مَهيب يترفَّع عن العطف على أولاده ، فإن رسول الله ﷺ يزجره عن هذا المبدأ ، ويشير إليه أن هذه قسوة لا يحبها الله ولا يرحم صاحبها ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان يلاعب الأطفال ويلاطفهم ولا يترفع عن مخالطتهم ، وأنه حمل طفلا وهو يصلى ، وأنهض طفلا من عثرة عثرها وهو يخطب ، وأنه غسل بيده وجه أسامة وهو صبى ، وأنه قال « من كان له صبى فليتصاب له » يعنى فليكن معه كما يكون الصبى مع الصبى ملاطفة له وإيناسا !

هذا هو المبدأ السليم الموافق للفطرة والحكمة فى معاملة الأطفال ، لا مبدأ لأقرع بن حابس وأمثاله الذين نراهم فى بيئاتنا الحضرية والريفية !

وعلى الآباء والأمهات واجب آخر للأبناء ، بعد واجب العطف

والرحمة ، نبه إليه رسول الله ﷺ بقوله : « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » :

فمن إحسان أدبهم أن ينشئوهم على حب الدين والوطن والأخلاق الشريفة من الشجاعة والصدق والرحمة والنجدة والحياء والعفة والصبر ، وأن يعلموهم الصلاة والمحافظة عليها ، وأن يفرقوا بينهم فى المضاجع كما أمر الرسول .

ومن إحسان أدبهم ألا يملئوا رءوسهم بالخرافات والأوهام ، ولا يخوفوهم « بالبعابع » والعفاريت ، ولا يقصوا عليهم قصص الغيلان ، فإن ذلك يؤثر فى شجاعتهم ويُفسد تصورهم للأمور !

ومن إحسان أدبهم ألا يفضلوا بعضهم على بعض فى مظهر من مظاهر العطف والبر ، فإن ذلك يفسد العلائق بينهم ، ويزرع الضغينة والتنافس السيء فى قلوبهم .

ومن إحسان أدبهم ألا يثيروا أمامهم نزاعاً يسمعون فيه ألفاظ السباب ، وألا يتركوهم يختلطون بذوى الأخلاق السيئة من الأطفال .

وأما ما يوصى به رسول الله ﷺ من لزومهم فمعناه أن نراقبهم بأنفسنا ولا نعتمد على الخدم ، ولا نكتفى بالمدرسة والمعلمين ، وهذا معنى فى التربية عظيم ليتنا نأخذ به ونسير على هداه ، فإننا قد ألفنا أن نترك أولادنا اعتماداً على غيرنا : يخرج الأب إلى عمله صباحا ، ثم

يعود بعد أداء عمله فلا يستقر فى بيته إلا ريثما يتناول طعامه وينال بعض راحته ثم يخرج إلى المقهى أو المنتدى الذى ألف أن يقضى فيه سهرته ، فلا يجد بعد ذلك وقتا يراجع فيه ما فعله أبناؤه ، وهل هم يقومون بواجباتهم أو لا يقومون ، وهل يستفيدون من دروسهم أو لا يستفيدون ، ولهذا يفسدون أحيانا ، ويرسبون أحيانا ، ويضعفون أحيانا ، وهو عنهم غافل ، ثم تراه يملأ الدنيا صياحا ، ويندب سوء حظه وحظ أولاده وربما سب المدارس والمعلمين !

والأم تترك أطفالها للخدم ، مُؤثرة أن تجلس مجلسا مع صديقاتها ، أو تستغرق وقتا طويلا فى إعداد زينتها ، أو فى عمل خارج بيتها ، والطفلُ مسكين إن لم يصبه مرض جسمى ، أصابه مرض نفسى خلقى ، وقد قيل « اعط ولدك خادمك يكن لك بدل الخادم اثنان » ، ومعنى ذلك أن الولد ينشأ على صفات الخادم إذا وكل إليه ، فينشأ كأنه خادم مثله !

لهذا يقول الرسول ﷺ « الزموا أولادكم » وإنها لنعم الوصية » !

عناية الإســلام بالبنات

« عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاثَ تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ودفعت إلى فيها تمرةً لتأكلها فاستطعَمتها بنتاها ــ أى طلبتا منها أن تطعمهما ــ فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها بها من النار » .

« وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة » وفى رواية « من كانت له ابنتان أو أختان » وفى رواية أخرى أن رجلا سأله : « وواحدة يارسول الله ؟ » فقال : « وواحدة » .

* * *

نعرف أناسا يكرهون البنات ، ويحزنون إذا بُشِّروا بمولدهن ، ويتنكرون لنسائهم ، ومنهم من يطلقهن لذلك أو يضارُّهن بزوجات أخريات ، ونعرف أسرة وصل بها الحد فى كراهة البنات إلى أن الأب والأم اتفقا على حرمان بناتهما من الميراث وتخصيص الأبناء به من

دونهن ، ونعرف رجالا أخوة أشقاء قد استولوا على نصيب أخت لهم من تركة أبيهم ، وحرموها ثمرته هي وأولادها وزوجها ، مع أنهم يعلمون فقرهم وعيلتهم ، ونعرف امرأة مات عنها زوجها ، وترك لها طفلتين فقيرتين ، ولم يكن لها إلا أخ شقيق ، فلجأت إلى داره بابنتيها ، فقبلها أخوها على مضض ، وعاشت معه تخدمه وتخدم أولاده وزوجته بطعامها وطعام طفلتيها ، وهو فى بسطة من العيش ، وبحبوحة من النعيم !

هذه أخلاق الجاهلية الأولى التى حاربها الإسلام ونعاها على أهلها ، مازالت تجد فينا من يعتنقها ويسير على سبيلها : الجاهليون هم الذين كانوا يكرهون البنات ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ﴾ وهم الذين كانوا يعضلونهن ويمنعونهن حقوقهن ، وكانوا يصلون فى هذه الكراهية إلى حد الوأد ودفنهن فى التراب على الحياة ﴿ أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ .

وقد جاء الإسلام بإنصاف المرأة ، والاعتراف بحقوقها . .

وقد بيّن أن الذكورة أو الأنوثة خاضعة فى الخلق والتكوين لمشيئة الله وسنته الكونية ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ وبين أن للمرأة مثل ما للرجل ، وأن الله ينظر إليها فى التكاليف كما ينظر إليه سواء ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء

نصيب ﴾ ﴿ إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ ﴿ فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ .

وقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساء خيرا ، وأمر بتربية البنين والبنات جميعا ، وخص البنات بمزيد من العناية فورد عنه أنه قال : « من عال جاريتين أى بنتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين — يشير بأصبعيه — » وأنه قال « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو كالقائم الذى لا يفتر ، أو كالصائم الذى لا يُفطر » وها هى ذى عائشة أم المؤمنين تصوِّر لنا هذه الصورة الإنسانية الرائعة ، صورة الأم الرحيمة التى حرمت نفسها التمرة — ولعلها كانت فى حاجة إليها — لتقسمها بين ابنتيها ؛ وكيف عجبت عائشة لهذا الروح ، روح البر والإيثار الذى يدل على سمو فى النفس ، ولا يصدر إلا عن قلب مفعم بالإيمان ، ولذلك أنبأها النبى ﷺ — لما علم — بأن الله قد أوجب لها الجنة ، أو أعتقها من النار ، وأن هذا شأنه عز وجل مع كل من أدرك ابنة له أو بنات ، أو أختا أو أخوات ، فأحسن إليهن ، وقام بتربيتهن خير قيام ، وفى معنى الأب مع ابنته ، الجد مع بنت ابنه أو بنت ابنته ، والعم مع ابنة أخيه وكل ذى رحم لا توصَل إلا به مع ذات رحمه !

* * *

إن الظلم لبشع ، وإن إنكار الحقوق لطغيان ، وإن أظلم الظلم أن تجحف بمن ينتظر منك العدل والإنصاف ! وإن أكبر الطغيان أن تطغى على من جعلك الله له حمى من الطغيان !

وإذا احتاج الأب إلى من يثير عطفه ورحمته لابنته ، أو احتاج الأخ إلى من يناشده الرحم بينه وبين أخته ؛ فعلى الأخلاق ، بل على الدنيا ، العفاء !

اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم

« عن النعمان بن بشير ، أن أباه بشيراً نَحلَه بعضَ ماله فقالت أمّه عمرة بنت رواحة : لا أرضى بهذه العطية حتى تشهد عليها رسول الله ﷺ ، فانطلق أبوه إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره بما كان من عطية ولده النعمان ، والتمس من رسول الله أن يَشْهد على هذه العطية ، فقال رسول الله ﷺ : له أخوة ؟ قال : نعم . قال الرسول : فكلَّهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ فقال : لا . قال الرسول : فليس يصلح هذا . أرجعْه إنى لا أشهد إلا على حق ، لا تُشهدنى على جَوْر . أشهدْ على هذا غيرى . اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا لك فى البر . أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال : نعم . قال الرسول : فلا أذَن ، وأمره بردِّ العطية ؛ فرجع بشيرٌ فى عطيته » .

* * *

وردت هذه القصة فى كتب السنة الصحيحة ، وتلقاها المحدثون فى أصلها بالقبول ، وجاءت بروايات متعددة ، اختلفت فى التعبير فى

إنكار النبى ﷺ لصنيع بشير ، فى تخصيص ولده النعمان ببعض ماله ، دون أن يكون لسائر أخوته مثله ، وقد جمعنا لكم تلك الكلمات على اختلافها ، وكان منها الأمر برد هذه العطية ، وأنها عمل لا يصلح ، وأنها جور والرسول لا يشهد على جور ، وأنها منافية لتقوى الله التى تتطلب العدل بين الأولاد ، وأنها مما يقطع برّ الأولاد بآبائهم ، ولا ريب أن شيئاً واحداً من هذا كله كاف فى حرمة هذا الصنيع الذى يصنعه كثير من الآباء فى أبنائهم تلبية لشهوة شخصية ، أو لعاطفة زوجة محبوبة ، أو تأثرا بمظاهر مكر وخداع يظهر به بعض الأبناء ، أو تفضيلاً للذكر على الأنثى ، أو خوفاً من انتقال المال بواسطة البنت إلى زوجها ، أو غير ذلك من الأسباب التى ملأت نفوس كثير من الناس ، وهى أسباب فاسدة فى ذاتها ، لا ينبغى لعاقل أن يتخذ شيئاً منها أساساً لتصرفه فى ماله على هذا الوجه الذى يترتب عليه من المفاسد ما لا تحتمله حياة البيوت والأسر ، فنسبة الأبناء إلى الآباء نسبة واحدة ، لا يفضل أحدهم أخاه فى شىء منها ، وقد جعل الله بها للجميع حقوقاً متساوية فى مال أبيهم ، وأوصى الآباء بمراعاتها ، للذكر حقه وللأنثى حقها ، وأنزل فى كتابه : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ وهذا التصرف لا يَرضى صاحبُه بقسمة الله ، فيتولى هو بنفسه القسمة فيعصى الله ، ويتعدى حدوده ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل : يُوغِر به صدر الأخ على أخيه ، وصدر

الأخت على أختها ، وصدريهما معا على أبيهما ، فتتفرق بذلك الأسر ، وتنشق عصا الرحم ، وتشتعل بين أبناء الرجل الواحد ، وفى البيت الواحد ، نار العداوة والبغضاء ، وقد رأينا أنْ قَتَل الأخُ أخاه ، والولد أباه ، وخرجت البنت على أبيها ، واحتربت مع أخيها ، وأنكر أخوها نسبتها ، هكذا رأينا ، وهكذا فعل الآباء بالأبناء !

هذا هو حكم الشرع فى تفضيل بعض الأولاد على بعض . فهل يسمع هؤلاء الذين يوقظون شرعة الجاهلية الظالمة ، فيخربون بيوتهم بأيديهم ؟ هل يسمعون هذه التحذيرات وهذا الإنكار البالغ ؟ هل يرون هذه الآثار السيئة التى تنزل بهم وبأعقابهم ؟ هل يسمعون ويَرون فيكفُوا عن أهوائهم الفاسدة ، وشهواتهم الضالة المضلة ؟ ﴿ وَمَنْ يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يُدخله ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مهين ﴾ .

* * *

أيها المشرِّعون : إذا كان الشرع والقانون يوجبان الحجر على المدين محافظة على حق الدائن ، ومنع الوقف فى بعض صوره اتقاء لفتنة التفريق بين الأبناء ، أو لفتنة الحرمان للبنت ؛ فإن الحجر على مثل هؤلاء الآباء الذين يفتنون أبناءهم بتصرفهم ، ويزعزعون عناصر الأسرة ويُهددون كيانها لأوجب عند الله ، وألزم فى نظر القانون والعدل .

حق الوالدين على الولد

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله . من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

وعنه رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر — أحدهما أو كلاهما — فلم يدخل الجنة » .

* * *

إذا جاز لمتحدث أن ينبه إلى خلق شريف فيذكر محاسنه ، ويرغب فيه ؛ فإن « بر الوالدين » لا يحتاج إلى شىء من ذلك . إنه مقتضى الفطرة السليمة ، يستغنى بنفسه عمن يلفت إليه ، أو يحض عليه ، ويكفى أن يرجع المرء إلى قلبه وعواطفه ، ويستعيد شيئاً من ذكريات طفولته ، وما كان من أبويه معه : فى يقظته ومنامه ، فى صحته ومرضه ، فى رضاه وغضبه ، فى غيابه وحضوره ، وأن يتابع تطورات حياته منذ كان جنيناً فى ظلمات الرحم إلى أن كان رجلا قوياً ذا كيان مستقل : من أحتمله وهناً على وهن ؟ من وضعه كرهاً ؟ من

رعاه ؟ من أطعمه وسقاه ؟ من علمه ورباه ؟ من بذل راحته ليهنأ ، وضحى بسعادته ليسعد ، واحتمل العناء فى ماله وجسمه وصحته وأعصابه ليوفر له حياة الرغد والأمن والاستقامة ؟

ألا إنه لا يوجد فى الحياة من يعتبر بحق مثال التضحية الصامتة الصابرة المثابرة الراضية المطمئنة كالوالدين بالنسبة لولدهما ، لذلك كان برهما مقتضى الفطرة ، لأنه شكر للنعمة واعتراف بالجميل ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

وقد أمر الله عز وجل بالإحسان إلى الوالدين فى غير موضع من كتابه ، وأبرزه إبرازاً يدل على مزيد العناية والاهتمام : قرنه بعبادته وتوحيده ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربُّكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ ، وطلب أن يُقرن شكرهما بشكره : ﴿ أن اشكر لى ولوالديْك إلىَّ المصير ﴾ واستعمل فى حقهما ألفاظاً ذات معان خاصة تزيد قوة عن صيغة الأمر ، كلفظ « وصينا » الذى كرره مراراً ، وكلفظ « قضى » الذى ينبىء عن ثبوت الحق بمقتضى الواقع والطبيعة .

ولعل أروع وأجمع ما ورد من القرآن الكريم فى هذا الشأن هو قوله تعالى : ﴿ وقضى ربكَ ألا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما

قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهُما كما ربَّيانى صغيراً ﴾ .

سبع وثلاثون كلمة صُدِّرت بكلمتين قويتين فى معناهما : ﴿ وقضى ربك ﴾ ثم ذكر شأن الإله وعبادته فى أربع كلمات منها فقط ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ ، وخصصت إحدى وثلاثون كلمة لشأن الوالدين فى أسلوب المناشدة للأبناء ، وفى صورة قوية ذات تأثير فعال : تأمر بالإحسان المطلق فى كل شىء : فى القول ، فى الفعل ، فى المعاملة ، فى الطاعة ، فى العطف والبر ، ثم تذكر حالة الكبر التى يبدو فيها احتياج الوالدين إلى ولدهما ، والتى يرهف فيها إحساسهما فتطلب أن ينتهز الابن هذه الفرصة فيرد الجميل فى كرم وإحسان ، دون تأفف ولا تبرم ، ويخفض الجناح تذللا ورحمة ، ويعتبر نفسه بعد هذا كله غير قادر وحده على رد الجميل ، وتوفية الحق ، فيستعين بربه ، ويلجأ إليه ، ويدعو لهما قائلا : ﴿ رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ .

هكذا يرشدنا الله إلى حق الوالدين ، وقد طلب منا الرسول ﷺ أن نحسن صحبتهما ، وأرشدنا إلى أن كبر الأبوين أو أحدهما عند الابن نعمة يجب عليه أن يبادر بشكرها ، وأن يتخذها وسيلة إلى رضى ربه ، والفوز بجنته ، وإلا رغم أنفه ، وضل سعيه ، وأفلتت الفرصة من يده .

وقد أكد رسول الله ﷺ حق الأم خاصة فذكرها ثلاث مرات ، لأن جميلها أعظم : ﴿ حملته أمه وهناً على وهن ﴾ ، ولأنها إلى البر والإحسان أحوج .

وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد ، فقال : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد — يعنى فأحسن إليهما ، وقم بحقوقهما ؛ يكن لك أجر المجاهدين !

وجاءه رجل فسأله : هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم « الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » !

أما بعد فهذه هى منزلة الأبوين ، وتلك حقوقهما فى كتاب الله وعلى لسان رسوله ، فما بال أقوام يتنكرون لآبائهم وأمهاتهم أن آتاهم الله منصباً أو خوَّلهم نعمة ؟ ما بالهم يسيئون إليهم ، ويبخلون عليهم ، ولا يحتفظون بكرامتهم ، ويحكِّمون فيهم نساءهم : إن عاشوا معهم عاشوا عيشة الذل والهوان ، وإن استقلوا بأنفسهم ذاقوا مرارة الفقر والحرمان ؟!

ألا إن هذا لخروج على مقتضى الفطرة وواجب الدين ، وغمط للمعروف ، وإنكار للجميل ، ولن يجتمع هذا فى قلب واحد مع الإيمان .

حق الرحـــم

« عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » .

ويقول النبى عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : « أنا الله ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

* * *

الرحم كل من بينك وبينه قرابة ، فالإخوة والأخوات وأولادهم رحم ، والأعمام والعمات وأولادهم رحم ، والأخوال والخالات وأولادهم رحم .

والرحم بين الناس بمثابة الخيط الذى يضم الحبات المتفرقة فيتكون منها عقد واحد . له اسم واحد ، ووجود واحد ، وقوة واحدة ، وذلك العقد هو الأسرة ، ومن الأسرة تتكون الأمة ، وكلما كانت الأسرة متماسكة أفرادها ، مترابطة قلوبها ، متبادلة عواطفها ، متحدة فى الشعور بحاجات أفرادها ؛ كانت الأمة كذلك مترابطة متماسكة متضامنة ، مصلحة الفرد فيها من مصلحة الجماعة ، ومصلحة

الجماعة من مصلحة الفرد ، لا تعرف الانحلال ولا التخاذل ولا التواكل ، وبذلك تحيا الأمة حياة قوية مستمدة من نفسها وشعورها ، وحسبها ذلك عزة وسعادة ! وإذا كان الإحسان مطلوباً بين الناس عامة قياماً بحق الإنسانية المشترك ، ومطلوباً بين المؤمنين على وجه خاص قياماً بحق الإخوة الدينية ، فإنه بين الأقارب مطلوب على وجه أخص وعلى نحو ألزم ، قياماً بحق الرحم التى كانت محل عناية عظيمة فى الوصايا الإلهية وفى الهدى النبوى الكريم :

يقول الله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

ويقول النبى عليه الصلاة والسلام : « والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وعنده قرابة محتاجون لصدقته ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وقد رتب القرآن الكريم على قطيعة الرحم ، سوء العاقبة ، وغضب الله ولعنته ، فقال : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « أسرع الخير ثواباً البرُّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغى وقطيعة الرحم ، وحسب القاطع لرحمه أن من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله ..

أيها المستكبرون على أرحامهم ، المترفعون بجاههم ووظائفهم وأهليهم وقراباتهم . أيها الآكلون لحقوق أخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم والضعفاء من ذويهم ، المنكرون لأنسابهم فى سبيل ذلك الجشع ظلماً وعدواناً . أيها المسرفون فى الهوى والملذات ، الباخلون فى الحقوق والواجبات ، المكدرون لصفو الأمهات والبنات والأخوات والعمات . أيها القاطعون لما أمر الله به أن يوصل : إليكم جميعاً قول الله عز وجل .

﴿ يأيها الناسُ اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

عدل الإسلام فى العمال والخدم

خرج أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ذات يوم من المدينة ومعه خادمه وعليه حُلة وعلى خادمه حلة مثلها . فقابله أحد أصحابه فسأله : كيف تُلبس خادمك مثل ما تلبس ؟ فقال له أبو ذر : إنى سابَبْت رجلا ، وكان منى أن عَيَّرته بأمه وعبته بسوادها ـــ وكان الرجل خادماً أمه سوداء ـــ فشكانى إلى رسول الله ﷺ ، فقال لى النبى ﷺ : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ـــ يريد الرسول أن الأب والأم لا ذنب لهما فى السباب ، ولا خصام بينهما وبينك ، فسبُّهما طغيان فى الخصومة ، وإسراف فى المشاتمة ، وذلك من أُخلاق الجاهلية ـــ ثم قال عليه الصلاة والسلام إرشاداً إلى منزلة الخادم من المخدوم ، وإلى ما يجب على المخدوم فى معاملة الخادم : « إن إخوانكم خَوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » .

بيَّن الرسول بهذا :

(١) أن الخدم والمخدومين إخوان فى « الدين والإنسانية » وأخوة الدين لها حقوق ، وأخوة الإنسانية لها حقوق .

(٢) وأن الله مكّن المخدومين من الخادمين . وجعلهم تحت أيديهم ، يقومون بمصالحهم ، ويحققون أغراضهم فى شئونهم ، وبدونهم يختل نظامهم ، وتذهب راحتهم .

(٣) وأنهم إذا كانوا كذلك وجب على المخدومين قياماً بحق الأخوة وحق الخدمة ، أن يحسنوا إلى خادميهم ، ويعطفوا عليهم بما يشرح صدورهم ، ويطهر قلوبهم ، وأن يوفوهم حقوقهم وأجورهم . ويرضوهم ، فى طعامهم وكسوتهم ، ووجب عليهم أيضا ألا يكلفوهم من الأعمال ما يشق عليهم ويضعف قوتهم . فلا يصلحوا من بعد لهم ولا لغيرهم ، وينسابوا فى الطرقات يتكففون ، ويكونوا وصمة فى جبينهم وجبين الأمة . وإذا لم يكن بد من عمل شاق ، وجب أن يعينوهم عليه ، ويساعدوهم فيه إما بأنفسهم أو بضم آخرين إليهم .

وقد روى « أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبدا له فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله ، فلم يُعْفه ، فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى الرسول أمسك يده ، فقال له الرسول : سألك بوجه الله فلم تُعفه ، فلما رأيتنى أمسكت يدك ؟ قال : فإنه حر لوجه الله يارسول الله . فقال الرسول : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار ! » .

هذا هو هدى النبى الكريم فى معاملة الخادمين وهو أسمى ما يتصور الناس من العدل الاجتماعى !

مثل رائع من الإيثار

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى مجهود ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندي إلا ماء . ثم أرسل إلى الأخرى فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل إلى الباقيات فقالت كل واحدة منهن : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال النبى ﷺ لأصحابه : من يُضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يارسول الله . فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ، فقالت : ليس عندى إلا قوت صبيانى . قال : فعلليهم بشىء ، وإذا أرادوا العَشاء فنوِّميهم ، وإذا دخل ضيفنا فأطفىء السراج وأريه أنّا نأكل معه . فقعدوا وأكل الضيف حتى شبع وباتا طاويَيْن . فلما أصبح الأنصاريّ غدا على النبى ﷺ فقال له : لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة ! » .

* * *

قصة رائعة من قصص الإيثار ، والإيثار خلق تجلى فى أصحاب محمد ﷺ وسجله الله لهم فى كتابه العزيز حيث يقول : ﴿ والذين

تبوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة ومن يوقَ شحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون ﴾ وبه ارتبطت قلوبهم ، وتماسكت وحداتهم ، وقويت فى الله أخوتهم .

قابلوا هذا الإيثار الذى يُربط به الفلاح بما نحن عليه من أثرة وأنانية : كل امرىء منا حريص على أن ينتزع ما فى يد أخيه ، وعلى أن يضم إلى ألوفه المؤلفة درهم أخيه المقل ، وليس ذلك فى المال فحسب ، ولكننا أنانيون فى كل شىء : فى الأعمال ، فى الوظائف ، فى الصيت والشهرة ، فى الجاه والنفوذ ، حتى لكأن الواحد منا يريد أن يجعل يده وحده على الدنيا جميعها !

ولو أننا حين فاتتنا مرتبة الإيثار لم نلق بأنفسنا إلى الدرك الأسفل من الطرف الآخر ، طرف الأثرة والأنانية ؛ لكان لنا سبيل إلى منزلة وسط هى التمتع بما آتانا الله من مال وفضل ؛ هى الانتفاع بما رزقنا الله من نفوذ وسلطان ، أو العود بذلك كله على أرباب الحاجات وأصحاب المظالم ، عَوْداً تُرَدُّ به الحقوق ، وتطمئن به القلوب ، ويُذهب الله به الغل والحقد من الصدور .

وفى هذه القصة الرائعة بعد ذلك مثل عظيم للزوجة الصالحة ، المتعاونة فى إخلاص مع زوجها ، الحريصة على كرامته ، والمكرمة له فى

ضيفه : امرأة فقيرة ليس فى بيتها إلا قوت صبيانها تقدم هذا القوت لضيف زوجها عن طيب خاطر . وتحتال لأفلاذ كبدها حتى يناموا بلا عشاء ، ثم تحتال للضيف فتطفىء السراج حتى لا يشعر الضيف أنه منفرد بالأكل دونهما ، وتبيت هى وزوجها طاويين جائعين !

أين من هذا صنيع المتحضرات المتمدينات اليوم ؟ أحسب إحداهن لو فوجئت بضيف ليس فى حسابها ، ولا فى عداد الجالسين إلى مائدتها ، لثارت على زوجها ، وأرغت وأزبدت ، وهددت وتوعدت ، ولعل الله أن يعجب من صنيعها مع الضيف عجب سخط وغضب ، كما عجب من صنيع أختها البدوية عجب رضا وقبول !

حقوق الجيـــران

« عن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن ! قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جارُه بوائقه[1] » .

* * *

إن الجوار أمر طبيعى لا غنى عنه ، ولا طمأنينة ولا قرار فى الحياة بدونه ، وكل امرىء منا يشعر بأن قسطا عظيما من سعادته وسعادة أهله وأبنائه مرتبط بعلاقته مع جيرانه : إن كان معهم متفاهما متعاونا متبادلا المحبة والاحترام ؛ كان مستريحا آمنا مطمئناً متجها إلى أعماله ، متوفرا على أداء واجباته ، وإن كان معهم فى خصام وشجار وتحاسد وتباغض وتقاطع وتدابر ؛ كان متعبا مضطربا خائفا وجلا مشغولا

---

(١) البوائق : الغوائل والشرور .

بألوان من المشاكل وفنون من الكيد ، تصرفه عن عمله ، وتكدر عليه صفو حياته ، وتفسد أخلاقه وأخلاق أهله وبنيه وبناته .

لذلك كان من أهم ما أوصى به الدينُ رعاية الجار ، والقيام بحقه ، وإحسان معاملته ، والبعد عن كل ما يسيئه فى نفسه أو أهله أو ولده أو داره أو طريقه أو عمله .

وها هو ذا رسول الله ﷺ يوصى به على هذا النحو المؤكد ، وبهذا الأسلوب القوىّ ، فينبئنا أن الوصية به من السماء لا من الأرض ، من جبريل عن رب العالمين ، وأنها وصية متكررة ملحة ، لا تقف عند مرة أو مرتين أو ثلاث ، ولكنها تصل إلى الحد الذى يظن معه رسولُ الله ﷺ أن الله سيجعل للجار حقا فى ميراث جاره ، كأنه أحد أفراد أسرته الأقربين ! ثم يقرر الرسول ﷺ أن المؤذى لجيرانه غير مؤمن ، ويكرر هذا النفى فى حديثه ثلاث مرات ، ويقسم عليه فى كل مرة !

وشبيه بهذا ، حديث المرأة التى كانت تقوم ليلها وتصوم نهارها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال فيها رسول الله ﷺ : لا خير فيها ، هى من أهل النار !

وقد ورد القرآن الكريم بما يثبت هذه العناية الكبرى بالجار حيث أمر الله عز وجل بالإحسان إليه ، بعد أمره بعبادته — سبحانه — وعدم الإشراك به !

وللجار عليك حقوق : أن تكف نفسك عن أذاه ، وأن تصفح عن زلاته ، وتغض عن عوراته ، وأن تواسيه إذا حلت به نكبة ، وأن ترعاه فى أهله وولده إذا غاب ، وأن تفرح لفرحه ، وتحزن لحزنه ، وألا تتطلع إليه لتعلم ما يخفى من أسراره ، وألا تقسو على ولده ، وألا تفسد عليه خادمه ، وألا تُتبعه النظرَ فيما يحمل إلى داره ، وألا تتفاخر عليه بما آتاك الله من نعمة فى مال أو صحة أو ولد .

وليس الجار هو الملاصق لبيتك فقط ؛ فإن لك جيرانا كثيرين لهم عليك حقوق : زميلك فى وظيفتك جار ، فلا تش به ولا تنم عليه . نظيرك القريب فى تجارتك جار فلا تضار به ، ولا تسُم على سَومه ، ولا تحمل عليه حقداً ، ولا تدعُ ضده بدعاية سيئة . الزارع بجانب أرضك جار ، فلا تحتجز دونه الماء ، ولا تمنعه حقوق الارتفاق ، ولا تسمَّ ماشيته ، ولا تحرق ساقيته ، ولا « تُقَلِّع » زراعته ، ولا تفسد عليه مستأجريه ، والتلميذ إلى جانب التلميذ جار ، والعامل إلى جانب العامل جار ، والزوج إلى جانب الزوج جار .

هذه حقوق الجيران . وعلى النساء فيها مثل ما على الرجال ، بل قسط النساء فيها أكبر : فهن القديرات على حسم أسباب النزاع أو زيادتها ، وهن المطفئات لنيران العداوة أو الموقدات ، وهن المحمسات للأزواج والأبناء على الشر أو المهدئات ، وهن صاحبات التصرف

الحسن إذا شئن ، والشاذ إذا شئن ، وفى أيديهن مفتاح السعادة أو الشقاء بين الجيران !

وإن الرجل ليخرج إلى عمله ، ويترك زوجته فى بيته ، فمن حقه عليها أن تسلك مع جيرانها سلوكا مهذبا ، وأن تتلطف معهم ، فلا تثير نزاعا ، ولا تسترسل فى جدال ، وأن تصبر على بعض الأذى فى سبيل ذلك ، فإنها إن فعلت هيأت لزوجها الهدوء إذا عاد وأشعرته سعادة الزوجية ، وهناءة الأسرة ، وحببت إليه بيته وأولاده ، أما ذلك الذى يترك بيته هادئا فى الصباح ، ثم يعود إليه فى المساء ، فإذا الحربُ قد أعلنت ، وإذا الحدود قد اقتُحمت ، وإذا الغارات قد شُنَّت ؛ فذلك — والله — مسكين أىُّ مسكين !

رعاية اليتيم

« عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ــ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى » .

« وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يُبعث يوم القيامة قومٌ من قبورهم تأجج أفواههم نارا ، فقيل : من هم يارسول الله ؟ قال : ألم تر إلى الله يقول ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾ .

* * *

ما أجدر اليتيم بالرعاية والعطف ، والشفقة والبر . إنه نبات ناشىء بحاجة إلى السقى والتعهد ، إنه إنسان صغير كشَّر له الزمان عن أنيابه وهو فى مطلع حياته ، إنه طفل لا يصلحه إلا السرور والمرح والهدايا والبشاشة والرحمة ، ولكنه حُرم ذلك كله . إنه يرى الأطفال من حوله مدللين يدعون آباءهم فيلبون دعاءهم ، ويسارعون إلى تحقيق رغباتهم ، أما هو فيظل وحيداً شارد الفكر ، إن كان فقيرا جفاه الأقربون والأبعدون ، وإن كان غنيا تربص لأمواله الأوصياء والطامعون !

هذا هو اليتيم ! هذا هو الإنسان الغريب بين بنى الإنسان ! ولعمرى إن البر به والقيام برعايته واصلاح شأنه لواجبات إنسانية يجب على الناس أن يقوموا بها ، لا لمصلحة اليتيم فحسب ، ولكن لمصلحة المجتمع أيضا ، لئلا يفسد ويشرِّد فيصير على الأمة وبالا ، ولذلك دعانا رسول الله ﷺ إلى القيام بهذه الواجبات فى أسلوب رائع من الترغيب والتخويف : فالذين يكفلون اليتيم كفالة قوامها الإصلاح والبر والرحمة ، يأتون يوم القيامة فى جوار الرسول ، ويكونون معه جنبا إلى جنب كالإصبع بجانب الإصبع ، وأنعم بجوار الرسول يوم الفزع الأكبر من جوار ! أما الذين يتخذون كفالة اليتيم مورداً لاقتناص المال واختلاسه وأكله ظلماً ؛ فإنهم سيبعثون يوم القيامة وأفواههم تتأجج ناراً !

ولقد عُنى القرآن الكريم بأمر اليتيم مستقصيا أحواله ، مبيناً أحكامه حتى استغرق ذلك منه ما يقرب من عشرين آية فى مواضع متفرقة :

أمر بالإحسان إليه ﴿ وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ وذكر النبى ﷺ بأنه كان يتيما — يستثير بهذا التذكير عطفه وعطف المسلمين على اليتامى — ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ، ونهاه عن قهر اليتيم ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ وجعل العنف عليه أمارة على التكذيب بالدين . ﴿ أرأيت الذى يكذِّب بالدين فذلك الذى

يدعُّ اليتيم ﴾ وأمر بإصلاحه فى كافه أحواله : فى نفسه . فى خلقه . فى تربيته وتعليمه . فى ماله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ وحذر من قرب ماله إلا بالمعروف ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ والعهد هنا عهد التضامن الإنسانى على خير الفرد والجماعة ، وأمر بإعطاء اليتامى أموالهم عند بلوغهم ، وحذر من أكلها ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ وأمر بالعدل والقسط فى يتامى النساء اللاتى يرغب الأوصياء أو أبناؤهم فى التزوج منهن طمعا فى أموالهن أو تخففا من المهر الذى يدفع لأمثالهن ﴿ وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما ﴾ .

وهكذا استقصى القرآن أحوال اليتامى منذ صغرهم إلى أن يبلغوا الرشد والزواج ، وليست هذه الوصايا والأحكام والتحذيرات بأمور ترجع إلى الفرد فقط بصفته الشخصية ؛ وإنما هى للأفراد بصفاتهم المختلفة ، وللجماعات ، ولولاة الأمر : فإذا كنت وصيا على يتيم فأنت مطالب بها ، وإن كنت محاميا فلا تترافع ضد اليتيم وأنت تعلم أنه

مظلوم ، وإذا شهدت فى قضية ليتيم فلا تكتم الشهادة مجاملة للوصى عليه ، أو الآكل لماله ، وإذا كنت عينا من الأعيان محترماً فى قومك فلا تترك الذين يظلمون اليتامى دون أن تنهاهم عن الظلم وتأمرهم بالإصلاح .

والجمعيات الخيرية مطالبة بأن تعنى بالأيتام عناية جادة ، ولا تكتفى بمجرد التقارير والخطب ومظاهر الدعاية الجوفاء ، والمجالس الحسبية عليها أن تعنى وتدقق فى كل شأن من شئون اليتامى والقاصرين ، فإن للأوصياء حيلا ومعاذير وتعللات ، وولاة الأمور مطالبون بالإشراف على كل ذلك إشرافاً فعالا يرضى الله ورسوله ويكفل الحقوق لأصحاب الحقوق !

فليقم هؤلاء جميعاً بواجباتهم ، فإنها دعوة الإنسانية ودعوة الدين ﴿ وليخْشَ الذينَ لوْ تركوا مِنْ خلفهم ذرّيّةً ضِعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولا سديداً ﴾ .

مفاتيح الخير

« عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن هذا الخير خزائن ، ولتلك الخزائن مفاتيح . فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير » .

« وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله عباداً اختصهم بحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله » .

« وعن علىّ كرم الله وجهه قال : قال لى رسول الله ﷺ : ياعلىّ . إن الله تعالى خلق المعروف ، وخلق له أهلا فحببه إليهم ، وحبب إليهم فعاله ، ووجه إليهم طلاّبه ، كما وجه الماء فى الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها . إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ! » .

* * *

يحثنا رسول الله ﷺ فى هذه الأحاديث على باب عظيم من أبواب البر ، به تسود المحبة ، وتقوى الروابط بين أفراد الأمة ، ويسلم المجتمع

من كثير من الشرور والآثام : ذلك هو سعى القادرين فى مصالح الناس ، والمساعدة على إيصال الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، وقد وصف رسول الله ﷺ من يفعلون ذلك بأنهم « مفاتيح الخير مغاليق الشر » وأنهم « أهل المعروف » فى الدنيا والآخرة ، لذلك خلقهم ، ولذلك يسرهم ، يسوقهم إلى الخير كما يسوق الماء إلى الأرض الجُرُز[١] ، فتنبت ما شاء الله من نبات وثمر ، وأنهم « هم الآمنون من عذاب الله » .

هذه بشارات نبوية كريمة ينبغى أن يفرح بها أولئك الذين يسَّر الله لهم خدمة الناس ، وحببها إلى قلوبهم ، فانبعثت نفوسهم للسعى فى المصالح ومعاونة أصحاب الحقوق حتى تصل إليهم حقوقهم . ينبغى أن يفرحوا بها ، ويستقبلوا هذه الحاجات التى توجه إليهم من الناس على أنها نعم قد أنعم الله بها عليهم ، ومنازل عليا قد ارتضاها لهم ، وشكر النعمة فى هذا المجال يستدعى أن يخلصوا ، وأن يبذلوا كل جهد فى سبيل القيام بما ندبهم الله له ، وجعلهم أسبابه ومفاتيحه .

يستطيع كل إنسان منا أن يكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر : بالمال يفعل ذلك من آتاه الله المال ، وبالرأى يفعل ذلك من آتاه الله الرأى ، وبالقلم يفعله من آتاه الله القلم ، وبالجاه يفعله من آتاه الله

---

(١) الأرض الجرز هى التى لا تنبت .

الجاه ، والزوجة تفعله فى بيت زوجها ، والابن يفعله مع أبيه ، والأب مع ابنه ، والصاحب مع صاحبه ، والجار مع جاره .

إذا استطعت بمالك أن تدفع حاجة محتاج ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا استطعت بجاهك ونفوذك أن توصل صاحب حق إلى حقه ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا آتاك الله قلماً تبين به الحقائق ، وتدفع به فى صدر الفساد والباطل ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا استطاعت الزوجة أن تُرقّق قلب زوجها على أهله ورحمه حتى يصلهم ببره وإحسانه ؛ فهى مفتاح للخير مغلاق للشر ، والصاحب الذى يجمع الله به شمل الأصحاب ، ويصونه عن الإيقاع بينهم بالنميمة والفساد ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر ، والجار الذى يأمن جاره بوائقه ، ويسعد هو وأهله بجواره ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر ، والزائر الذى يجلس إلى جانب الموظف فى مكتبه فيحثه على العمل وقضاء مصالح الناس ، ويشفع عنده لأصحاب المطالب العادلة شفاعة حسنة ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر .

وهكذا نجد فى كل ميادين الحياة فرصاً لعمل الخير ودفع الشر ، إذا انتهزها الإنسان أرضى ربه ، وأرضى ضميره ، وأحسن إلى أمته ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون !

الرفق بالحيــوان

روى عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا سافرتم فى الخصْب فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم فى الجدْب فأسرعوا عليها السير ، وبادروا بها نقيها ، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق ، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل » .

يقول : إذا سافرتم فى الأرض المخصبة بالنبات ؛ فمكنوا الإبل من أخذ حظها من الرعى ، وإذا كنتم فى أرض مجدبة لا نبات فيها فأسرعوا بها لتستريح قبل أن يذهب نقيها « مخها » من التعب ، وإذا عرستم « نزلتم أثناء السفر فى مكان لتستريحوا » فاجتنبوا الطريق فإنه طرق الدواب ومأوى الحشرات بالليل .

« ومر رسول الله ﷺ مرة ببعير قد لحق ظهره ببطنه ــ أى التصقت بطنه بظهره من الجوع ــ فقال : اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحاً ، وكلوها صالحة » .

« ودخل مرة حائطا (بستانا) لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى رسولَ الله ﷺ ؛ جرجَر وذرفت عيناه ، فأتاه النبى ﷺ فمسح سراته وذفراه « الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن »

فسكن . فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لى يارسول الله . قال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملَّكك الله إياها ؟ فإنه يشكو إلىَّ أنك تجيعه وتُدئبه — يريد تتعبه فى العمل — .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ خُفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . فقالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر » .

* * *

الرحمة من أخص أوصاف الله رب العالمين ، وقد كان له منها وصفان عظيمان بدىء بهما القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ وركبت منهما جملة الاستعانة به سبحانه فى كل شيء : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وقد طلبها الله من عباده وجعلها عنواناً على الإنسانية الفاضلة ، ودليلا على الإيمان الكامل ؛ طلبها من عباده ، وجاء على لسان رسوله « من لا يَرحم لا يُرحم » والرسول يقرر فى هذه الأحاديث أن الحيوانات ذات أرواح

كأرواحنا ، وأنها تحس كما نحس ، وتتألم كما نتألم ، وقد سخرها الله لنا لننتفع بها فنأكل لحمها ، ونستعين بها فى مصالحنا ﴿ والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون * ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحينَ تسرحَون * وتحملُ أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفُس إن ربَّكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحميرَ لتركبوها وزينة ﴾ .

وقد حرّم علينا لذلك إيذاءها بأى نوع من أنواع الإيذاء كالجوع والعطش ، والعمل المتواصل ، والحمل الثقيل ، وأوجب الرفق بها والإحسان إليها بالإطعام والسقى ، وتهيئة المأوى الصالح ، وإزالة الدرن عنها ، والتخفيف عليها ، وبقرر عليه السلام أن إيذاءها يستوجب غضب الله وعقابه .

وقد ورد « أن امرأة دخلت النار فى هِرَّة ربطتها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض » وأن الرأفة بها والعطف عليها صنيع مشكور لصاحبه . يدل على قلب فياض بالرحمة لخلق الله « والراحمون يرحمهم الرحمن » .

أيها العمال . أيها الحمالون :

ألا تحبون أن يرحمكم الله وأن يشكر لكم ؟!

الرسول يحرم التجارة فى الخمر والخنزير

« عن ابن عباس رضى الله عنه أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ يحمل مزادة خمر هدية إليه فقال له الرسول : هل علمت أن الله حرّمها ؟ قال : لا يارسول الله ، فكأن الرجل فهم أن تحريمها قاصر على شربها فبدا منه ما يدل على أنه يريد بيعها : فقال له الرسول : إن الذى حرم شربها حرم بيعها ففتح الرجل مزادته حتى ذهب ما فيها من الخمر » .

« ورُوى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها لما نزلت الآيات من أواخر سورة البقرة فى تحريم الربا ؛ خرج النبى ﷺ إلى المسجد ، فأعلن حرمة التجارة فى الخمر » .

« ورُوى عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة : إن الله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » .

* * *

يظن كثير من الناس أن الله إنما حرّم من الخمر شربها ، ومن الخنزير أكله ، والرسول صلوات الله عليه يعلن فى هذه الأحاديث حرمة التجارة فى الخمر والخنزير ويسوِّى بين بيعها وبيع الأصنام التى كانت

تُعبد من دون الله ، وقد كانت العرب تشرب الخمر ، وتأكل الخنزير ، وتعبد الأصنام ، وتقتسم بالأزلام ، وتلعب الميسر ، وكان لكل ذلك فى أسواقها تجارة رائجة ، وتغلغلت هذه الأشياء فيهم حتى صارت شعائر لهم ، فجاء الإسلام ونظر إلى هذه الأشياء نظرة الكاره لها ، المنفر من آثارها السيئة التى تؤثر فى العقيدة ، وفى العقول ، وفى الأبدان ، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى صفو الحياة وهدوئها ، فلم يكن بُدٌّ من تحريمها وتحريم ما يكون ذريعة إليها ، كالتجارة فيها ، وقد طلب الإسلام أشياء ونهى عن أشياء ، وجعل مجموع ما طلب وما نهى عنه يكون شعارا خاصا يميز المسلمين من غيرهم ويجعل لهم شخصية معينة بارزة ، بها يعرفون بين الأمم : طلب إقامة الصلوات ، والأذان لها ، وإقامة الجُمَع والأعياد ، وصوم رمضان ، والحج فى أشهر معلومات ، وحرم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والخنزير وما ذبح لغير الله ، فأصبح كل هذا من شعائر الإسلام فعلا وتركا : إذا ما تمسك به المسلمون حققوا شخصيتهم ، وميزوا تقاليدهم ، واعتصموا عن الزيغ فى العقيدة والفساد فى العقول والأبدان ، وتضييع الأموال بغير فائدة ، وغير ذلك من شرور ما حرم الله ؛ بحبل من الله متين ، وتَرْكُ شىء مما طُلب ، وفعل شىء مما حرم ؛ هدم لهذه الشعائر ، وتضييع لشخصية المسلمين : ترك إقامة الصلوات الخمس والجمع والأعياد ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، التجارة فى الخمر والتصريح

بها ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، التجارة فى الخنزير ولعب الميسر ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، واجتماع ذلك كله فى الأمة ؛ هدم لشخصيتها من جميع الجوانب ، وليست هذه من المعاصى الفردية التى يقف ضررها عند صاحبها ، وإنما هى فتك بالجماعة فى مقوّماتها وشعائرها ، ومن هنا كان من حق الحاكم المسلم ، أو من واجب الحاكم المسلم ، أن يحرق على الخمّارين بيوتهم ، وأن يهدم على الخنازير وأصحابها حظائرهم ، وأن يطارد الجميع مطاردة الثائرين على الأمة ، العابثين بمنهاجها فى الحياة ﴿ ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾

من غش فليسَ منا

« عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فيه ، فرأى بللا ، فقال : ما هذا ياصاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء . فقال : فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غش فليس منا ! » .

* * *

التجارة باب من أبواب الكسب الطيب ، والرزق الحلال ، وقد نوَّه الله بها ، وأمر بالانصراف إليها بعد الفراغ من صلاة الجمعة التى أمر الناس بترك البيع لأجلها ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ .

ولكن التجارة لا تقع موقعها عند الله ، ولا تكون ابتغاء من فضل الله ، إلا إذا توخى فيها أهلها جهات الصدق والإحسان ، والبعد بها عن أساليب الغش والخداع . أما إذا خالطها الجشع والحرص على الكسب من أى طريق كان ، فإنها تنقلب شراً ووبالا ، وتصير كسباً

خبيثاً غير مأمون العاقبة فى الدنيا ، ومستوجباً لغضب الله فى الآخرة .

وقد أرشد النبى الكريم إلى ما يجب على التاجر أن يتحاشاه ، وما يجب عليه أن يرعاه حتى يكون فى كنف الله ، وينال المنزلة التى أعدت للتاجر الصادق : قال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » وأبرز ما يجب على التاجر أن يتحاشاه ؛ الغش فى السلع ، ويكون بإخفاء ما فيها من عيب ، ينقص قيمتها أو يفسدها على المشترى ، وقد كان النبى ﷺ حريصاً على أمته يخشى عليها أن تقع فى مخالب أرباب الغش والخداع ، فكان يتفقد شئونها بنفسه ، ويضرب المثل البارزة لأرباب الولايات ورؤساء المصالح فى الحرص على تعرف ما يجرى بين الأفراد من معاملات ، وقد لمس بيده الكريمة ذات مرة بلل الطعام الذى سرّه مظهره وأغضبه مخبره ، فأنكر على البائع أن يحتال فى تصريفه بوجه يخدع الأبصار جيّده الظاهر ، ويخفى عنها عيبه الباطن ، وقال له تحذيراً من مثل هذا الصنيع الممقوت تلك الكلمة الحازمة التى يجب أن يتخذها المؤمنون شعاراً فى معاملاتهم ، وفى جميع أحوالهم : « من غشّ فليس منا » وفى مثل هذا يقول النبى ﷺ : « لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبين آفته » .

إن الصلة التى بين المؤمنين وبين نبيهم ليست إلا صلة الإيمان ، والإيمان أساس الأخوة الدينية بين المؤمنين ، وقد كان مما يبايع عليه

النبى ﷺ من يُسلم ؛ النصح والإخلاص لكل مسلم فمن يُلبِّس على أخيه ولا ينصح له طمعاً فى متاع زائل وكسب غير شريف ؛ فقد قطع بعمله هذا صلته بالرسول ، وعرَّض نفسه للخسران والدمار .

وإذا كان هذا شأن من يغش فى حفنة من طعام ، ويخدع عن درهم من مال ؛ فما بال من يغش ويخدع فيما هو أعظم من ذلك وأجل خطرا ؟

فينا الصانع الذى يدلس فى صناعته ، وفينا الصديق الذى يخدع أصدقاءه ، وفينا الزوج الذى يخدع زوجته ، وفينا الزوجة التى تخدع زوجها ، وفينا الأجير الذى يخدع صاحب العمل ، فينا هؤلاء ، وفينا من يخادع فى المصلحة العامة : يخادع نفسه ، ويخادع الناس .

كل هؤلاء كصاحب الطعام الذى غشّ فيه ، بل هم أشد منه خطراً وأعظم عند الله وزراً . فليرحم الناس أنفسهم ، وليحذروا الغش والخديعة فى جميع أعمالهم ونواحى حياتهم ، فذلك أجدر أن تدوم لهم أخوة الإيمان ، وتتوثق الصلة بينهم وبين رسول الإسلام ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

أصناف الحالفين بالله

« عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما « أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : يارسول الله . ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس » .

« وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك » .

* * *

الحالفون بالله أصناف :

صنف اعتاد من غير قصد إجراء كلمات اليمين على لسانه فى كثير مما يتكلم به ، فهو يقول : « لا والله ، بلى والله . إى والله » .

ومن هذا النوع ما يجرى عادة بين الناس من أيمان التكريم والتراحم وإظهار العناية والاهتمام : والله تأكل ، والله تشرب ، والله تتفضل ، والله أنا شبعان ، والله ما أقدر ، والله أنا مشغول ، وهكذا ...

مثل هذه اليمين رحم الله عباده فتجاوز عنها ، وعدها لغواً لا إثم

فيه ، لأن الحالف لم يعقد القلب على الكذب ، ولم يقصد إحقاق باطل ولا إبطال حق ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الإيمان ﴾ .

ولكن البر — مع هذا التجاوز من الله والغفران — يقضى على المسلم بمراعاة تكريم اسم الله ، وعدم الزج به فى مثل هذه الشئون العامة ، وأن يعالج ما تعود عليه من ذلك ، حتى لا تجرى على لسانه ألفاظ الحلف ، وحتى يسمو بنفسه أن يقول ما لا يقصد .

وصنف من الناس يعلم واقع الشيء ، ولا يشك فيه ، ويحلف مع هذا العلم على خلافه ، يقصد سلب حق ، أو إقرار باطل ، أو إيذاء برىء عن طريق الدس عليه والكيد له ، أو التقرب إلى حاكم أو رئيس ، بتصوير الأمور له على غير وجهها ، تمشيا مع الأهواء والشهوات .

هذه اليمين سماها رسول الله ﷺ بأسماء : سماها اليمين الفاجرة ، ويمين الزور ، ويمين الغموس : صاحبها فاجر يقتحم حمى الله عن قصد ، مزوِّر ، يطمس الحقائق ، صاحبها لا كفارة له إلا الغمس فى جهنم ، وقد جعلها رسول الله ﷺ من الكبائر ، ثانية الإشراك بالله ، فلينظر امرؤ لنفسه ؛ كيف يجمع عليها الفجور والزور والغمس فى النار مع العصاة والمشركين !

وصنف ثالث يحلف على الشيء يفعله أو لا يفعله ، ثم يتبين له أن غيره خير منه ، وأن المصلحة تقضي بعدم التمسك بهذه اليمين : يحلف ليقطعن أخته ، أو ليهملنَّ حق أبيه أو أمه ، أو ليهجرنَّ صديقاً ، أو لينتقمنَّ من برىء أو ليكفنَّ عن عمل الخير ، ثم يعود إلى رشده فيرى أن قطيعة الرحم ، أو هجر الصديق ، أو الانتقام بغير حق ، أو الكف عن عمل الخير ؛ أشد عند الله وأعظم إثماً من الحنث في اليمين .

وهنا قضت رحمة الله أيضاً أن يفتح للتخلص من مثل هذا المأزق بابا يُطمْئن النفس إلى عفو الله ، ويحقق المصلحة التي انكشفت بعد اليمين ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليُكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير » .

أما الكفارة فهي ﴿ إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يجد فصيامُ ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ .

براءة الله من التجــار المحتكرين

روى عن مَعْقل بن يسار ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليُغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » يريد بمكان عظيم من النار .

ورُوى عن عمر قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس » .

ورُوى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من احتكر حُكرة يريد أن يُغلى بها على المسلمين فهو خاطىء » والحكرة حبس السلع عن البيع .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

* * *

أباح الله لعباده البيع والشراء ، وندبهم إلى التجارة ، وجعلها باباً من أبواب الكسب وتحصيل المعاش ، ومنحهم حرية التصرف فى البيع والشراء ، مادامت الحال تسير فى سبيلها الطبيعى لا تكلف أحداً

شططاً ، ولا تُرهقه عُسراً ، فإذا انحرفت عن هذه السبيل ، والتوت بالتجار عن طريق الاعتدال ، ودفعهم الجشع إلى حيث اللعب بالأسواق ، وانتهاز الفرص الملحة ، وفتح لهم أبواب الغش والتدليس والإيذاء ؛ فهنا يحذرهم الرسول — وهو بهم رءوف رحيم — أن يلجوا هذه الأبواب ، مذكراً إياهم بوخيم العاقبة التى تنزل بهم فى الدنيا والآخرة جزاء ما يقدمون عليه من إيذاء الناس والتضييق عليهم طمعاً فى أرباح هى الكساد بعينه . وهى المقت وسوء السبيل .

وقد جاءت هذه الأحاديث النبوية التى رويناها لكم تحذر من الاحتكار وعاقبته ، والاحتكار هو حبس المواد التى تشتد حاجةُ الناس فى حياتهم إليها ، انتظارا لغلاء السعر ، أو إغلاء للسعر . وهو عام فى مواد الطعام والشراب والكسوة والعلاج وأدوات العمل من زراعة وصناعة وكل ما يضر بالناس حبسه ، وقد ذاق الناس الأمرين من الاحتكار فى هذه السنوات الأخيرة ، ولا يزالون يصطلون بناره ، ويتقلبون فى جمره على الرغم مما اتخذته الحكومات المتوالية من نظام التسعير الجبرى ، وإعلان الناس عن آفته ، ونرجو أن يجد الناس فى هَدْى الرسول الكريم ما يردعهم عن هذا الصنيع الممقوت ، فالنبى صلوات الله وسلامه عليه يُقرر أن الاحتكار ذنب يستوجب غضب الله على المحتكرين ، وأنه من الذنوب التى تُعجل عقوبتها فى الدنيا ،

والتى تقطع صلة الإنسان بربه ، وحسب المحتكرين فى ذلك قوله ﷺ فيمن احتكر : « ضربه الله بالجذام والإفلاس » وكأنَّ الجذامَ جزاءُ اقتطاعهم أرزاق الناس بغير حق ، والإفلاس جزاءُ طمعهم فى الغنى عن طريق لا خير فيه ، يؤذى الناس ويُفقرهم ، وحسبهم أيضاً قوله فى المحتكر : « برىء من الله وبرىء الله منه » مع ملاحظة أن براءة الله ما جاءت فى القرآن لأحد من الناس إلا للمشركين الذين يعبدون غير الله .

فاللهم ارحم عبادك وطهرهم من فتنة هذه الحياة .

السـماحة فى المعاملات

« روى البخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء » .

* * *

ليس الإحسان مقصوراً على الصدقة ، والبر بالفقير ، ولكنَّ له صوراً كثيرة ، يجدر بمن أراد الفوز برضا ربه ، والنجاح فى حياته أن يتتبعها ليعرفها فيأخذ بها ويترك أضدادها ، فقد يكون المرء محسناً فى ناحية ، ومسيئاً فى ناحية أخرى ، ومثل هذا يخشى أن تذهب إساءته بإحسانه فيصبح من ﴿ الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ .

تناول الحديث الكريم أنواعاً أربعة من الإحسان : السهولة فى البيع ، والسهولة فى الشراء ، والسهولة فى القضاء — يعنى فى أداء ما عليك للناس — والسهولة فى الاقتضاء — يعنى فى أخذ ما لك عند الناس — .

ودعا بـرحمة الله لمن أخذ بها ، ورحمة الله فى هذا المقام هى

ما يترتب على هذه السهولة من يسر الحياة ، واستقامة أمورها ، وما يتمتع به المرء فيها من حب واحترام .

فالسهولة فى البيع ، صفة يجب أن يتصف بها التاجر الذى يريد أن ينجح ، وأن يرحمه الله فيبارك له فى تجارته وربحه : يجب عليه أن يكون سمحاً قانعاً باليسير من الربح لا يشتط ولا يَضِن بالسلعة على طالبها ، ولا يُخفيها ليوهم أنها عزيزة المنال .

ونفهم من هذا أن التاجر الذى يُقطب فى وجوه الناس ، أو يَحتكر ، أو يُغلى فى الأثمان ، أو يخفى البضائع ، أو يلزم الناس بشراء ما لا يريدون مع ما يريدون — هذا التاجر بعيد عن رحمة الله ، لا يصلح الله عمله ، ولا يُنجح سعيه ، ولا يبارك له فيما اغتصب مهما حاز من مال ، ومهما لَمَّ من ثروة ، وسيمحق الله ماله .

والمحق نوعان : نوع بإزالة المال ، ونوع بحرمان صاحبه — وهو فى خزائنه — من لذائذه . فتراه غنياً ولكنه مريض ، يفرض عليه الأطباء أدنى طعام ، ويحرمونه أىَّ متاع ، وربما سلط الله عليه ولداً مفسداً متلافا ذا جرائم ومغامرات ، إن أعطاه بدَّد وإن منعه هدَّد ، فينغص عليه حياته ، ويكدِّر صفو نعيمه .

والسهولة فى الشراء صفة يتحلى بها من يهمه أن تحفظ كرامته ، وتلقى فى القلوب محبته ، من يهمه أن يُسرع الناسُ إلى مرضاته ، وقضاء حاجاته ، وإيثاره بالأجود والأفضل .

إن الله لا يحب ، ولا ينجح ، المماكس المارى الطامع فى مال غيره ، الحريصَ على أن يقتطع من البائع — وربما كان فقيرا ذا عيال — مليماً أو درهما !

والسهولة فى القضاء : أن تُوفى الدين إلى صاحبه كما أخذته ، وأن تحافظ على موعدك الذى وعدته ، وأن تمشى إليه ، ولا تكلفه أن يمشى إليك ، وأن تشكره ، وتسره بأنك انتفعت بماله ، وأن الله بارك لك فيه — عندئذ يحبك ويحترمك ولا يضن عليك بعدها بشىء ، ويُصبح ماله كأنه مالك !

أما ذلك الذى يَمْطل ظالما ، ويسوّف قادراً ، ويستثقل أداء ما عليه ، ويكلف دائنه جهوداً طائلة فى اقتضاء حقه ، فذلك لا يرحمه الله ، ولا ييسر له من يأخذ بيده فى الملمات !

والسهولة فى الاقتضاء : أن تسامح الموسر ، وتُنْظر المعسر ، ولا تمن على صاحبك ولا تسىء إليه فى القول ، ولا تشعره بأنك خدمته أو آثرته على نفسك مع حاجتك ، ونحو ذلك مما يُحبط الأجرَ ، ويَذهب بالود ، ويكدِّر صفو الإحسان ، بل يقلبه سبباً من أسباب الحقد والكراهية والمقت ، من حيث لا يشعر الدائن ولا المدين ..

* * *

هذه أنواع من الإحسان فى المعاملة يرشدنا إليها رسول الله ﷺ

وقد كان هو مثلا لها ، يأخذ نفسه بها ، ويعرضها على أصحابه فى صور عملية رائعة : كان سهلا إذا أعطى ، سهلا إذا أخذ ، سهلا إذا قضى ، سهلا إذا اقتضى ، وقد كان الجفاة من العرب يقتضونه ما عليه فى خشونة وغلظة ، فيصبر عليهم ، وينهى أصحابه عن العنف عليهم ، سماحةَ منه ﷺ وحلماً وكرماً .

والمعاملة هى محَك الرجال ، والشاهدُ الذى لا ترد شهادته ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، وأصحابه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق ، فلا تَشُكُّوا فى صلاحه .

وشهد عند عمر رضى عنه شاهد فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مَدْخله ومَخْرجه ؟ قال : لا . قال : فكنت رفيقه فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم ؟ قال : لا . قال أظنك رأيته قائماً فى المسجد يُهمْهم بالقرآن ، ويخفض رأسه طوراً ، ويرفعه آخر . قال : نعم ! قال : فاذهب فلست تعرفه !! ثم قال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك !

ثلاثة يقسم عليهن الرّسول

« عن عمرو بن سعد الأنماری أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ثلاثة أقسم عليهن : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » .

* * *

كثير من الناس ينظر إلى الأمور نظرة سطحية عابرة فينخدع بظواهرها ويغتر بصورها ، ويُرتب حياته وأحكامه على هذه الظواهر والصور ، ولو كلف نفسه شيئاً من التعمق والتأمل والتروى لتجلى له وجه الحق فيها ، ولتغير حكمه عليها فهُدى إلى سبيل الرشاد .

ومن هذه الأمور التى يتوهم فيها الناس ما يخالف حقيقتها ؛ تلك الثلاثة التى يقسم عليها رسول الله ﷺ ، ليزيل أوهام الناس فيها ، ويرشدهم إلى وجه الحق فى شأنها :

هؤلاء الأغنياء الذين أمدهم الله بالأموال فلذّ لهم أن يحرصوا عليها ، وأن يربوها ويزيدوها ، وهم يشفقون من فتح أى باب ينقصها ، أو يحول بينهم وبين لذتهم فى زيادتها وتنميتها ؛ فينظرون إلى

الصدقات كأنها مغارم ، وإلى الفقراء كأنهم أعداء مسلطون على أموالهم ، يحاولون استلابها منهم ، وانتقاصها من خزائنهم وأيديهم ، لذلك ينفرون من الصدقات ، ويُشيحون بوجوههم عن الفقراء ، ولو تأملوا لعلموا أن الصدقة تربى المال وتباركه ﴿ يمحقُ اللهُ الرِّبا ويُربى الصدقات ﴾ . ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ﴾ . وإن الفقير الذى تفرج ضائقته بالقليل من مالك ، ليحتفظ فى نفسه لك بما هو أسمى من المال ، فربما جاد بنفسه فى سبيل حياتك أو حياة أحد من أهلك ، وربما دفع عن مالك من الشر ما لا تقدر على دفعه ، فإن « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » .

وهؤلاء الذين يستقبلون المظالم بالجزع والهلع فتفسد نفوسهم ، ويضعف احتمالهم ، ويتزعزع إيمانهم ، وتضطرب عليهم حياتهم ؛ فلا تثبت لهم قدم ، ولا يستقر لهم حال — هؤلاء ينظرون فقط إلى أن ظلماً حاق بهم ، وأنهم عاجزون عن دفعه ، وأنه قد قضى عليهم بالذل والهوان ، وينسون أن الله هو رب المظلوم ومولاه ، وأنه يمهل الظالم ولا يهمله ، فإذا وثق المظلوم بوعد الله ؛ فأجدر به ألا يجزع وألا يضطرب وألا يُفسد على نفسه حياته ، أجدر به أن يسير فى طريقه صابراً محتسباً ، فستكون له العاقبة ، وستكون له العزة والنصرة .

وهؤلاء الذين يسألو الناس إلحافاً ، ولا أريد المساكين الذين تردهم اللقمة أو اللقمتان ، ولكن أريد الذين يُريقون ماء وجوههم أمام

الرؤساء وأصحاب الجاه ، فى سبيل منْصب يَرقون إليه ، أو درجة يحصلون عليها ، أو علاوة ينالونها ، غير متوسلين بكفاية ، أو جد فى عمل ، أو غيرة على مصلحة — هؤلاء هم شر أصحاب المسألة . وإذا كانت القوانين قد أبت إلا أن تمنع التسول فى الشوارع والطرقات ، فأولى لها أن تمنع التسول أمام الرؤساء ، واتخاذ الوسطاء والشفعاء ، وإن التسول لأخذ مال من فرد ؛ لأهوْن كثيراً من هذا التسول على الدولة ، وليعلم الذين يستسيغون لأنفسهم ذلك أنهم يعرضون أنفسهم لأبواب من الفقر ، وأبواب من الذل فما كان أغناهم عنها لو كانوا يعقلون ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يَلقى الله وليس فى وجهه مُزْعة لحم » .

اكتتاب للفقـراء يَدعو إليه الرسول

فى حديث رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، أن قوماً من مضر أقبلوا على الرسول ﷺ فى صدر يوم من الأيام ، وقد بدت عليهم أمارات الفقر والفاقة ، يضعون على أجسادهم قطعاً لا تكاد تسترها حتى لكأنهم عرايا ، فتغيّر لذلك وجه الرسول ﷺ وبدا عليه الغضب الشديد ، وعز عليه أن يرى قوماً من المسلمين تتملكهم الفاقة إلى هذا الحد ، وقد جعل الله لهم حقوقاً فى أموال إخوانهم الأغنياء ، فرؤى ﷺ يومئذ مهتما قلقاً ، يدخل ويخرج ، ويقوم ويقعد ، ثم أمر بلالا أن يؤذن فى الناس فأذَّن بلال ، وحضر الناس ، وأقيمت الصلاة ثم خطب فقال : ﴿« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ ألا فليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُره ، من صاع تمره . إلى أن قال « ولو

بشق تمرة » فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى تجمع كومان من طعام وثياب فتهلل وجه النبي ﷺ لما رأى من تلبية ندائه ، واستجابة دعوته ، وقيام الأغنياء بحق الفقراء ثم قال : « من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

* * *

لعلّ هذا — أيها السادة — أول اكتتاب مالى فى الإسلام لمحاربة الفقر والعوز قام بالدعوة إليه رسول كريم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، لم يطق صبرا على رؤية هذا المنظر المؤلم ، منظر العرى والضعف والهزال ، وفى المسلمين أموال ، وبين المسلمين رحم من أب واحد وأم واحدة ، يتقاضاهم حقوقاً لبعضهم على بعض ، ولهم رب واحد هو عليهم رقيب ، وأمامهم يوم لا ينفع فيه نفسا إلا ما قدمت من خير : اهتم الرسول ﷺ لهذا المنظر ، وبرز هذا الاهتمام فى دخوله مرة وخروجه أخرى ، وتغير وجهه مما يدل على أنه كان ينظر إلى الأمر كأنه نازلة عامة بالمسلمين . ثم فى أمره بلالا بالأذان وجمع الناس . وفى تقديم الصلاة قبل الكلام ، وفى تذكير الأغنياء القادرين بل أرباب الدينار الواحد ، والدرهم الواحد ، والصاع

الواحد ، بالرحم التى بين الغنى والفقير ، ثم بالتهلل والاستبشار حينما رأى الإقبال على تلبية دعوته فى هذا الاكتتاب .

وجعل رسول الله ﷺ هذا الصنيع وأمثاله من الدعوة إلى الخير ، والاستجابة إليها ، سنة حسنة يستوجب بها صاحبها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين ، كما أن الإعراض عن دعوة الخير ، وعن تلبية الداعى ، سنة سيئة يستوجب بها صاحبها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين .

إنشاء الملاجىء سنة حسنة ، إنشاء المستشفيات سنة حسنة ، إنشاء معاهد العلم سنة حسنة ، الدعوة إلى التآلف والتحاب سنة حسنة ، الإصلاح بين الناس سنة حسنة ، تأليف الجمعيات الخيرية سنة حسنة .

والإعراض عن مثل ذلك أو التثبيط عنه سنة سيئة : شح الأغنياء عن الاكتتاب فى النوازل سنة سيئة . الاهتمام بالشخصيات وترك النظر فى المصالح العامة سنة سيئة ، إذكاء الخصومات ، وتأريث العداوات بين الناس سنة سيئة ، انتهاز الفرص للإيقاع والدس سنة سيئة . نسأل الله أن يلهمنا سنن الرشاد ، وأن يجنبنا سنن السوء والفساد .

الصّدقة فى هدى الرّسول

« عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة كل يوم . قالوا : يانبى الله فإن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فليأمر بالمعروف ، ويمسك عن الشر . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فإنها له صدقة » .

* * *

يظن كثير من الناس أن الصدقة التى أعد الله لصاحبها جزيل الخير فى الدنيا والآخرة هى خصوص إعطاء الفقير ما يحتاج إليه من طعام يقيم أوده ، أو كسوة تحفظ جسمه ، أو مال يدفع حاجته ، وأنها لذلك لا تكون إلا من غنى يفضل ماله عن تكاليف أسرته ومن تجب عليه نفقته ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقرر أن المسلم — كيفما كان غنياً أم فقيراً ، قوياً أم عاجزاً — مطلوب منه أن يتصدق كل يوم ، وأن الصدقة أنواع كثيرة ، وجهات من البر متعددة : فبذل الغنى ماله للفقراء صدقة ، وعمل الفقير لتحصيل رزقه وزرق أولاده ونفع المحتاجين صدقة ، ونصر المظلوم ، والتفريج عن

المكروب صدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والبعد عن الشر وإيذاء الناس صدقة ، فالمسلم فى رأى الرسول نفاع على الدوام بقدر ما يستطيع ، وقد جاء فى حديث آخر : كل سُلامَى من الناس عليه صدقة — يريد كل مفصل من مفاصل الأعضاء — كل يوم تطلع فيه الشمس فتعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

* * *

فأيها المسلم : إن مجال الخير أمامك واسع ، وطرق المثوبة عند الله كثيرة ، فعليك أن تتدبر هذا الهدى النبوى الكريم ، وأن تقصد من أعمال الخير إلى ما تستطيع فإن لم تجد إلى عمل الخير سبيلا فبحسبك أن تكف عن الشر ، ولا يهولنك فقر لا يمكنك من العطاء ، ولا عجز يحول بينك وبين العمل ، فقد بيَّن لك الرسول أن الكف عن الإيذاء سبيل للرضا والطمأنينة وعظيم الأجر والمثوبة .

الأرزاق والصـــدقات

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يُعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبّه ، والذى نفس محمد بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جارُه بوائقه — قيل يارسول الله وما بوائقه قال : غشَمه وظلمه — ولا يكسبُ مالاً من حرام فينفُق منه فيُبارك فيه ، ولا يتصدقُ به فيقبل منه ، ولا يتركُه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

* * *

حديث جليل الشأن . عظيم الاتصال بالحياة العملية ، ونبراس يهتدى به من يلتمس رضا الله فى الدنيا والآخرة .

إن الله لم يضن بالرزق على أحدٍ من خلقه : الكافر والمؤمن ، والحيوان والإنسان فى ذلك سواء ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ، وإن الأرزاق فى سعتها وضيقها ليست دليلا على حب من

الله أو بُغض ، فهو سبحانه يعطى الدنيا من أحب ومن لا يحب ، ولكن لا يعطى الدين والخلق الفاضل ، إلا من أحب ، فهما النعمة الكبرى التى يُسعد بها عباده المحبوبين ، وإذن فلا ييئس فقير بفقره ، ولا يتخذ منه دليلا على غضب الله عليه ، ولا يفرح غنى بغناه ولا يتخذ منه دليلا على رضى الله عليه ، وحبه إياه ، وليفرح الفرح كله ، من سلم قلبُه ، وسلم لسانه ، وحَسُنَ خلقه ، وعاشر الناس بالمعروف ، وأمن جاره مظالمه ، وليحزن الحزن كله من فسد قلبه ، واعتل لسانه ، وساء خلقه ، وتركه الناس اتقاء شره .

ألا وإن المال الحرام لا يبارك الله فيه فيدفع عن صاحبه شرا أو يجلب له خيرا ، ولا يقبل التصدق به فيحوز به مثوبة عند الله ، ولا يكون عدة إلى خير بعد موت صاحبه . وإذن فليعلم الذين يكسبون المال من الحرام أنهم لا يكسبون إلا الضياع والخسران ولو شيدوا القصور ، وليعلم الذين يتخذون الوسائل المحرمة كالقمار والرشوة والبغاء والربا لتحصيل الأموال ثم يتصدقون بها أن صدقاتهم عليهم مردودة ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، ويخدع نفسه من يظن أن الخبيث يدفع الخبيث ، وأن السيء يمحو السيء ، فلا يمحو السيء إلا الحسن .

﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾

وضع الإحسان فى مواضعه

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن به فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس ! » .

* * *

حالتان مشتبهتان فى أمر الإحسان ، يخطىء فيهما كثير من الناس ، ويترتب على الخطأ فيهما ضرر عظيم : حالة السائل الذى يمد يده إليك ، ويلقاك فى طريقك أو يقف على باب بيتك ، فيطلب منك العطاء بادى الذلة والمسكنة والفقر والمتربة ، وحالة المسكين المعتفف الذى ينطوى عليه بيته ، وتضنيه حاجته ، ويعصره فقره ، وهو مع ذلك ذو حياء لا يبذل ماء وجهه ، ولا يعرض كرامته لذل السؤال أعطاه الناس أو منعوه !

قد يُظن الأول فقيرا ، ويحسب مسكينا فتبذل له الصدقات ، وهو فى حقيقة أمره متسول طماع جماع ، قد اتخذ ذلك حرفة وأتقنها وبرز فيها ، وأعد لها مظاهرها ووسائلها ، بل قد يكون لصاً فى ثياب

شحاذ ، أو مجرماً يعيث فى الأرض الفساد ، وقد يُظن الثانى غنياً ، لأنه مع فقره حريص على حيائه وعفته ، يؤثر الكرامة على الاستجداء ، بل لعله يُعطَى فيرفض العطاء .

كم فى المجتمع من أمثال الأولين ، وكم فيه من أمثال الأخرين ، والناس فى حاجة إلى التحرى فى شأن الإحسان لئلا يقعوا فى خطأ من إحدى الناحيتين ، فإن الخطأ فى واحدة منهما يسىء إلى الأمة ويفسد حال المجتمع : نعطى من لا يستحق فيضرَى كما تَضْرى الوُحوش والكلاب ، ويستمرىء هذا الكسب الهين الذى لا يبذل فيه جهداً ، ولا يقدم فى مقابله للأمة عملا ، وحينئذ يشيع التبطل ويخيم الكسل ونخلق بأنفسنا بيئة فاسدة هى عش للمنكر والفساد تبيض فيها الجريمة لحسابنا وتفرخ وتستنبت فتربو على مدى الأيام ، وتذوق منها الأمة أعظم الويلات ؛ ونحرم فى نفس الوقت من يستحق ، فإذا الفقر يمسك بتلابيبه ، وإذا الحاجة تشد خناقه ، فإما أن يذوب ذوبانا ، ويموت موتاً سريعاً أو بطيئاً ، وإما أن يثور على المجتمع ، ويضطغن على الناس ، ويرى الحياة فى لونها الأسود القاتم لا تستحق شيئاً ، وحينئذ ينتقم من المجتمع ، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد !

لذلك عنى القرآن الكريم ببيان مصارف الزكاة والصدقات ، وتحديد مستحقيها من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى والأسرى

والغارمين وغيرهم ، وأعطانا علامة الفقراء الذين يستحقون الإحسان ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ .

وكذلك فعل الرسول الكريم فأرشدنا إلى أن هؤلاء المتسولة الذين يمدون أيديهم لينالوا اللقمة أو التمرة ، أو بحسب عرفنا الحاضر لينالوا المليم بعد المليم ، ليسوا بالمساكين ، إنما المسكين هو الذى عضه الفقر بنابه ، ولم يُفطن إليه فانطوى على نفسه وحيداً فى عُقر بيته .

وكم فى البيوت من أمثال هؤلاء الذين يصفهم الرسول ! كم فى المجتمع من أمثال هؤلاء الذين نسيهم المجتمع ، فهم يعيشون مجهولين محرومين بين محبسين من فقر وحياء ، وتعفف وشقاء .

لمثل هؤلاء يكون الإحسان لا للمتسكعين فى الشوارع والطرقات ، ولا للذين يهينون القرآن بقراءته على الأرصفة وأمام المساجد وفى القطارات ، ولا الذين ينشدون أناشيد « الحمد لرب مقتدر » و « لا تكثر لهمك ما قدر يكون » ولا الذين يلاعبون القرود وغيرها من أصناف الحيوان ، ولا للذين يؤدون الألعاب البهلوانية التى تعتمد على القوى الجسمية أو خفة الحركات ، ولا للذين يطوفون على القرى والكفور طلباً للعادات فى المواسم وأوقات المحصولات . إلى غير ذلك .

وقد يقال : أن معرفة هؤلاء المتبطلين سهلة يسيرة ، ولكن معرفة المتعففين صعبة عسيرة لأنهم يستخفون ويستحيون ، والواقع أن ذلك سهل لمن أراد إن لم يعرفه المرء بنفسه ؛ عرفه بأصدقائه أو بأقربائه أو معارفه ، فليحاول كل منا — بمقدار ما يستطيع — أن يجمع بين ثواب الإحسان ، وثواب الإحسان فى الإحسان !

أبحث عن تلميذ عاجز عن متابعة دراسته لفقره ، ابحث عن امرأة تربى أيتاماً ، تصدق على بائع صغير ذى عيال وفى يده تجارة تقدر بالملاليم أو القروش ، أنقذ مديناً لا يجد ما يسد به دينه من أسر هذا الدين ، أعن على دواء مريض محتاج . احمل ابن سبيل قد انقطع به الطريق وهكذا .

إيّاكم والمنّ بالمعـروف

عن أبى ذر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال أبو ذر : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار ، فقلت : خابوا وخسروا ! من هم يارسول الله ؟ فذكرهم وعدّ منهم المنان » .

وفى بعض طرق مسلم : « المنان هو الذى لا يعطى شيئاً إلا منة » أى تحدث به للناس أو ذكر به من أعطاه إياه .

وقال رسول الله ﷺ « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر » .

* * *

لا يقع المعروف موقع القبول من الله ، ولا يؤدى ما يرجى منه فى العادة من نشر المحبة والتراحم بين الناس ؛ إلا إذا صفا من المكدرات ، وسلم من المنغصات ، وأريد به وجه الله ! .

كثير من الناس يصنع المعروف ، ويكون معروفه عظيما : ينقذ بائساً من بؤسه ، يواسى فقيراً بماله ، يعالج مريضاً بطبه ، يعين محتاجاً

بجاهه ونفوذه ، ينشر بين الناس علمه ، يخدم وطنه ، يدعو إلى دينه ، يؤازر الحق ، يقاوم الباطل ، ينادى بالإصلاح ، كل ذلك معروف وإحسان ، ولكنه يُتبع ما فعل بما يكدره ، ويُذهب روعته ، ويخل بجماله وجلاله : يمنُّ على من أحسن إليه بمعروفه ، فيُسمعه ألفاظاً من شأنها أن تجرح عزته ، وتسيء إلى كرامته ، وربما رتب لنفسه حقوقاً على من أحسن إليه بمجرد الإحسان ، فتراه ينتظر منه أن يخدمه ، ويقضى حاجاته ، وأن يكون لسانا له فى كل مجلس ، يثنى عليه ، ويُشيد بذكره ، ويدفع عنه ، ويصادق من يصادق ، ويخاصم من يخاصم ، فإذا حاد عن ذلك أو قصر فى شيء منه ؛ عده منكراً للجميل ، وقطع عنه ما أمر الله به أن يوصل ! .

ومن هؤلاء من يمنُّون على أوطانهم ، ويؤذون أممهم أو طوائفهم التى ينتسبون إليها ، فترى الواحد منهم إذا أدى خدمة لوطنه ، أو قام بعمل نافع لفريق من أبناء أمته ؛ ظن أنه بذلك صار بطلا من أبطالها يستحق أن تنسج له ثياب الحمد والثناء ، وأن تشيد بإحسانه كل صباح ومساء ، وأن تمنحه كل ما تصبو إليه نفسه من مكافأة وجزاء ، فإذا لم تفعل تغير عليها قلبه ، واتهمها بأنها أمة جاحدة لا تقدر الرجال ، ولا تعرف الجميل !

هذا هو المن الذى يفسد المعروف ، وهذه بعض صوره ، وقد بين لنا رسول الله ﷺ « أنه يبطل الشكر ويمحق الأجر» لأنه يقلب

الإحسان والمعروف تجارة أو إجارة يُلتمس بها الجزاء عند الناس لا عند الله ، وقد كان من أول ما نهى الله عنه رسوله الكريم عدمُ المن : ﴿ يأيها المدثر قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾ فانظروا كيف كان النهى عن المن من أوائل ما نزل من القرآن ، وكيف وضعه بين أمر الرسول بالإنذار والتكبير والتطهير وهجر الرجز والاعتصام بالصبر ، وتلك أسس الدعوة ووسائلها .

ويقول الله عز وجل ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

إن المخلص لا يضيره أن يعترف الناس به أو يجحدوه ، لأنه يريد الله ، ومن أراد الله لم يلتمس الجزاء إلا من الله !

وقد كان أبو بكر رضى الله عنه يتصدق على مسطح ، فلما آذاه فى قصة الإفك باتهام عائشة رضى الله عنها ؛ رآه غير أهل لإحسانه لأنه قابله بالإساءة والظلم ولم يتعفف عن الخوض فى عرضه مع الخائضين ، فآلى على نفسه أن يعاقبه بقطع هذا الإحسان ، ولكن

الله ــ جلت حكمته ــ لا يحب الإحسان المعلل ، ولا يرضى إلا أن يكون خالصا لوجهه أولا وآخراً ، فأنزل قوله ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ يعنى ولا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة ويمتنعوا ﴿ أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ .

وحينئذ ثاب أبو بكر إلى ما هو أولى به من الصفح والمغفرة فقال : بلى يارب أحب أن تغفر لى وعاد إلى ما كان عليه مع مسطح !

فأى سموّ مثل هذا السموّ ؟

المرء على دين خليله

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إنما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير[1] ، فحامل المسك إما أن يُحذيك[2] وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » .

* * *

للبيئة تأثير على النفوس ، وسلطان على القلوب ، وكم رأينا من نفوس صالحة خيرة ، أفسدتها البيئة الفاسدة ، وكم رأينا من قلوب مريضة أبرأتها البيئة الصالحة ، والرسول ﷺ يقرر هذا المعنى فى تلك العبارة الموجزة « المرء على دين خليله » ثم يرتب على ذلك نصيحة غالية لها أثرها فى حياة الفرد والجماعة فيقول : « فلينظر أحدكم من يخالل »

---

(١) الكير : منفخة الحداد .

(٢) يحذيك : يهديك .

لينظر المرء من حوله من الناس . فلا يتخير لصحبته ، ولا يؤثر بصداقته ، إلا أرباب النفوس الطيبة ، والخصال الشريفة ، إن احتاج إليهم أعانوه ، وإن كبا أنهضوه ، وإن ضل أرشدوه ، وإن اعوج قوموه ، فإنه حينئذ يكون قد اختار لنفسه فأحسن الاختيار ، ولينظر المرء لأولاده وأسرته ، فلا يتركهم يتخبطون فى صلاتهم وصداقاتهم ، فرب أخى سوء جرَّ صاحبه إلى مباءة وفساد ، فقطع عليه سبيل الحياة السعيدة ، ورب أسرة زينت أساليب الغواية والاعوجاج لأسرة لم تكن تعرف سبيل الغواية والاعوجاج ، ولينظر كل رئيس فى مصلحته إلى بطانته التى يصطفيها ، ويضع ثقته فيها ، وينظر الأمور بعينها ، ويستمع إلى الأخبار من ألسنتها ، لينظر كل رئيس إلى بطانته وخاصته ، فإن علم أنهم يستسيغون الكذب على الناس ؛ لم يأمنهم على الحق ، وإن علم أنهم صغار النفوس ، أصحاب أهواء وأغراض ؛ لم يوافقهم على أهوائهم وأغراضهم ، وإن رأى فيهم ميلا إلى الظلم ، والإيقاع بالأبرياء ، وتدبير المكائد ، وشغل الناس بها عن مصالحهم ؛ بادر إلى نبذهم ، وتخليص نفسه أولا ، والناس ثانياً ، من شرهم ، فإنه عن أعمالهم مسئول قبل أن يسألوا ، وبجرائمهم مأخوذ قبل أن يُؤخذوا ، وسيحترق بنارهم ، أو يختنق بريحهم ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

وإذا كان حقاً على الرئيس أن يتخير بطانته ، ويصطفى خاصته ، وأهل مشورته ، فإن على هؤلاء الأصدقاء المصطفين واجباً ، هم عنه أمام الله مسئولون ، فهى أمانات قد حُمِّلوها ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ .

عليهم أن يراقبوا ربهم ، وأن يخلصوا لله فى أعمالهم وفى نصحهم وفى مشورتهم ، وألا يلبسوا الحق بالباطل ، وألا يكتموا الحق وهم يعلمون ، وألا يميلوا مع الأهواء والشهوات ، وأن يجعلوا من أنفسهم بذلك بيئة تعين رئيسهم على الخير ، وتضىء أمامه سبُل العدل والرشاد ، وليجد منهم ريحاً طيبة ، يشرح الله بها صدره ، وينجح بها أمره ، بذلك يسعد الناس وترفرف عليهم أعلام السكينة والأمن والاستقرار .

الحبّ فى الله

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما تحابَّ اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدُّهما حباً لصاحبه » .

* * *

لابد للإنسان فى هذه الحياة من صديق مخلص يبادله المحبة والوفاء ، ويفزع إليه عند الشدائد والملمات ، ويتذوق فى ظلال أخوته لذة التعاون والنصرة ، ويفضى إليه بذات نفسه ، ومكنون سره ، ويشعر إلى جانبه بالطمأنينة والأمن والرضا والهدوء !

إذا أنعم الله على أحد من الناس بمثل هذا الصديق ، فقد هوّن عليه نصف أعباء الحياة ، ذلك بأن الحياة سفر طويل شاق ، ولابد فى السفر من رفيق مؤنس يعين عليه ؛ وإلا كان سفرا موحشاً ثقيلاً على النفس غير محتمل الأعباء والتكاليف !

ولا تدوم الصداقة ولا تثمر ثمراتها إلا إذا كانت فى الله : الله وجهتها ، والله غايتها ، أما الذى يصادقك لمالك إن كنت ذا مال ، أو لجاهك إن كنت ذا جاه ، أو لعرض من أعراض الدنيا يلتمسه من وراء صداقتك فليس هذا بصديقك ، وإنما هو رجل يبحث عن مصلحته أنّى وجدها ، ويتقلب معها كيفما تقلبت !

لذلك يُعلى رسول الله ﷺ من شأن المحبة فى الله ، ويوصى كلا الصاحبين بأن يخلص فى حبه لصاحبه ، فإن أشدهما حبا وإخلاصا هو أفضلهما وأقربهما عند الله منزلة ، وقد نوَّه رسول الله ﷺ بهذا الشأن فى أحاديث أخرى : جعل من علامات المؤمن أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وعدَّ من السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، شابين تحابا فى الله اجتمعا عليه ، وافترقا عليه .

وقد كان لكل نبى أصحاب فى الله وحواريّون ، شدَّ الله بهم أزره ، وقوّى بهم دعوته ، وأعانه على خصومه . وأول صاحب لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ؛ أبو بكر الصديق : آمن به وقد كذبه الناس ، وهاجر معه ، وفداه بنفسه وماله ، وظل وفيا له فى حياته وبعد مماته ، لم تزلزله فتنة ، ولم تفسده دنيا ، ولم يغيره سلطان ، ولذلك سماه الله صاحبا ، وسجل صحبته فى كتابه العزيز حيث يقول ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ وما ظنكم باثنين الله ثالثهما ؟

* * *

هذه هى الصحبة ، وهذه هى الأخوَّة فى الله ، وإذا تتبعنا التاريخ وجدنا بجانب كل مصلح وكل داع إلى الخير ، إخوانا له فى الله ،

لولا مؤازرتهم إياه لم ينجح ، ولولا إخلاصهم لدعوته لم تثمر !

وليس الحب فى الله كلمة تقال ويدعيها المدّعون ، وإنما الحب فى الله أن يكون الله وجهتك حين تحب ، وأن يكون الله غايَتك حين تستمر على هذا الحب .

ليس من الحب فى الله أن تصادق صاحبك مادام فى نعماء وسراء ، فإذا تخلت عنه نعماؤه تخليتَ عنه وتركته وحده يعانى بأساءه وضراءه .

ليس من الحب فى الله أن تصادق صاحبك مادام ذا جاه ، فإذا زال الجاه زلت عنه وفررت منه !

ليس من الحب فى الله أن تحترم صاحبك مادام معك ، فإذا غاب عنك فريت جلده ، وتناولت عرضه .

ليس من الحب فى الله أن يجتمع الصاحبان على معصية الله ، وأن يتآزرا على هتك حرمات الله !

ليس من الحب فى الله أن تدع صاحبك يرتطم فى أخطائه ، أو تغطى عنه عيوبه بحجة الرفق به ، والخوف على صداقته !

* * *

هذا هو الحب فى الله ، والحب فى الله يدوم لدوام الله ، والحب فى الله جميل لأنه مظهر لجمال الله . « وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انبت وانقطع » .

خير ما يُهدى

عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ، أو يردُّه بها عن رَدَى » .

* * *

الإسلام صلة بين أهله يوجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم وحدة متماسكة متعاونة ، ينصح بعضها بعضا ، ويرشد بعضها بعضا ، كأنهم أبناء أسرة واحدة ، أفرادها أخوة متحابون ، وقد صرح القرآن الكريم بهذه الأخوة بين المؤمنين فى غير موضع : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ .

والمؤمنون مكلفون أن يوطدوا بينهم دواعى الألفة ، ويوثقوا روابط المحبة ، وأن يعتبر كل منهم مصلحة أخيه مصلحة له ، وما يصيبه من ضرر كأنه أصابه ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وأهم ضمان تتحقق به مصلحة هذه الأسرة الواحدة المتماسكة أن

يبذل كل واحد منهم لأخيه النصح والإرشاد : يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، ويُهدى إليه الحكمة والموعظة الحسنة ، فإما أن يزيده الله بها هدى ، أو يردَّه بها عن رَدَى .

إن الأخ المحب لأخيه هو الذي يستطيع أن يكون مرآة صادقة له ، يرى فيها محاسنه كما هى دون مبالغة ولا تفخيم ، ويرى فيها عيوبه كما هى دون تهويل ولا تضخيم . بذلك توضع الأمور فى مواضعها ، وتوزن الأعمال بموازينها ، ويستفيد المجتمع كله بما يفشو فيه من خير ، ويستريح كله لما اقتلع منه من فساد وشر .

ولكن النصح والإرشاد له آداب يجب أن ترعى ، فإنها إذا أهملت أنتجت عكس المقصود ، وفتحت أبوابا من الشر لا يعلم مداها إلا الله ، ولذلك يرسم الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، لأمته الطريق السديد الذى يوصل إلى الغاية دون شر يخالطه : ذلك أنه حين يأمر بالتناصح يعبر عنه بأنه هدية من أخ إلى أخيه فنعلم من ذلك أنه يجب أن يقدَّم النصح فى لطف وحسن ذوق واحتشام كما هو شأن الهدية ، لا أن يُلقى به فى وجه صاحبه فى غلظة وجفوة واجتراء ، فكم من نصيحة غالية يرفضها من قدمت إليه غير آسف عليها ، لأنها قدمت له فى ثوب كريه ، وبصورة تمجها الأذواق السليمة ، والطباع المستقيمة .

ولقد وصف رسول الله ﷺ هذا النصح أيضا بأنه كلمة حكمة ، ولا يكون الكلام حكمة حين يجافى اللياقة وحسن الأداء ، وهذا شأن عام فى كل نصح وإرشاد .

وقد أدب الله بهذا الأدب العالى نبيه الكريم فى مثل قوله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ فكان ﷺ مثال الناصح المتصرف لا يعنُف على أحد ، ولا يسب أحدا ، ولا يضخم ذنبا ، ولكن يرشد إلى الصواب فى رفق واحتشام ، وكثيرا ما كان يستعمل التورية أو يخاطب الجميع بقوله : بلغنى أن فيكم من عمل كذا ، وما بال أقوام يفعلون كذا ، لأنه يكره أن يواجه أحداً باللوم والتعنيف ، وقد فتح الله بهذا الأسلوب المهذب الراقى كثيراً من القلوب المغلقة ، التى لولاه ما فتحت ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

كما أدب الله بهذا الأدب نبيه موسى وأخاه هرون ، حين قال لهما فى شأن فرعون الذى ينازعه الألوهية ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليِّنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

* * *

هذا هو أدب النبوة وتأديبها فى النصح والإرشاد بين الأخ وأخيه : رفق وأناة ، وحكمة وموعظة حسنة ، وقول لين لا عنف فيه ولا تغليظ

فما بال أقوام إذا نصحوا سبُّوا وقذفوا ، وإذا أرشدوا لاموا وعنفوا ، وإذا رأوا ذنباً ضخموه وهوَّلوا على صاحبه ، ورموه بما ليس فيه ؟

ألا إن هذه طريقة منفرة ، من شأنها أن تفتن الناس ، وأن تفسد ولا تصلح ، فمن كان مهدياً نصيحة لأخيه ؛ فلينصح بالمعروف أو فليخلِّ عنه مواقف النصاح !

القصـــد فى الكلام

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » .

« وعن أبى سعيد وأبى ذر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « اخزُن عليك لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان » .

« وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر ، فقال له : كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى . قال : أفما كان لك من ذلك ما يرد كلامك ! » .

وفى رواية أنه قال ذلك لرجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال : « ما أوتى رجل شرا من فضل فى لسانه » أى : زيادة وثرثرة فى كلامه .

* * *

إن الكلام شهوة من الشهوات ، ربما استبدت بالمرء فأوردته موارد التهلكة ، والعاقل هو الذى يستطيع أن يكبح فى نفسه جماح هذه الشهوة ، فيمسك عليه لسانه ، ولا يطلقه بالقول فى كل مجال دون

روية ولا تفكير ، فقد يقول المرء كلمة يستخف بها ويندفع إليها فيكون من ورائها شر مستطير يصيبه أو يصيب سواه بسببه .

لذلك يرشدنا رسول الله ﷺ فى هذه الأحاديث وأمثالها إلى أدب عال يتحلى به المؤمن : أن يكون مقتصدا فى الكلام ، ليس مهذارا ولا مكثارا ، وأن يجعل قلبه قبل لسانه ، فإذا عرض له ما يستدعى الكلام فكّر قبل أن يتكلم ، وتروّى قبل أن يندفع ، فإما أن يقول خيرا ، ويبرز هذا الخير فى أسلوب يتفق مع جماله وجلاله ، وإما أن يؤثر السكوت ويعتصم بالصمت .

هذا الأدب فى القول والحديث ، جدير بأن يرفع قدر صاحبه ويجنّبه كثيرا من الصعاب ، ويجعله محبوبا عند الناس ، ولا يستثقلونه ولا يتبرمون به ولا يكرهون مجلسه ، وهذا معنى الرحمة التى ذكرت فى الحديث الشريف « رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » .

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ فى حديث الإسراء مثلا : حيوانا ضخما يخرج من جحر صغير ثم يحاول أن يعود إليه فلا يستطيع وقال : إن هذا مثل الكلمة السيئة ينطق بها الرجل ثم يبدو له سوءُها فيندم عليها ويحاول أن يستردها فلا يقدر ، وسأله رجل : ما أخوف ما تخافه علىّ يارسول الله ؟ فأخذ بلسانه وقال : هذا ! وورد عنه أنه

قال : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا فيهوى بها فى النار سبعين خريفا » « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

وقد استنكر عليه الصلاة والسلام كلام الرجل الذى تكلم فأكثر ، وأثنى عليه فاستهتر ، ورده ردا فيه زجرٌ له ، مبينا أن الهذر وفضل الكلام شر ما يصاب به إنسان ، ولم يمنعه من ذلك أن الرجل كان يمدحه ويبالغ فى مدحه ، فالعاقل الحصيف لا يغتر بالثناء ، ولا يُخْدَع عن نفسه .

* * *

من لنا بأن يؤخذ بهذا الأدب العالى فى بيئات يكال فيها الثناء جزافا ، ويُلقى فيها المديح استهتارا وخداعا ؟ من لنا بأن يفقه هذا الأدب العالى أقوام يطيب لهم أن يطلقوا ألسنتهم بالقول فى كل مجال ، وأن يزجوا بأنفسهم فى كل نقاش أو جدال ؟ من لنا بأن يفقهه أقوام يطيب لهم أن يطوفوا إلى الليل بالمجالس والمنتديات فيسمروا بالقيل والقال ، وبالشائعات التى تشيع ، والأكاذيب التى تخترع ، والأعراض التى تنهش ؟ من لنا بأن يفقهه أولئك الزائرات للبيوت ، لا هم لهن إلا الحديث فيما لا يفيد عن فلانة أو فلان ؟ من لنا بأن يفقهه أولئك الذين نصادفهم فى السيارات أو الترام أو المتنزهات العامة ،

فنسمعهم يفيضون فى ألوان من الهزل تشمئز منها النفوس ، وتتصدع لها الرءوس ، وربما كان فى السامعين فتاة أو سيدة كريمة لا يليق أن تقال أمامها أحاديث البذاء والمجون التى تنافى الآداب ، بين الصيحات ورنين الضحكات :

أيها المسرفون فى القول والهذر :

﴿ إن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

حق الطريق

« عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا : ما لنا بد . إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » .

* * *

إلى الذين يجلسون على المقاهى وأمام الحوانيت ، وعلى أفاريز الشوارع ، وملتقى الطرقات ، إلى الذين يقفون على محطات الترام ، وفى جوانب الميادين ، إلى الذين يرتادون المتنزهات والملاعب ، ويقفون على أبواب الملاهى ، إلى هؤلاء جميعاً نسوق هذا الهدى النبوى الكريم عن « حق الطريق » :

يحذركم رسول الله ﷺ الجلوس فى الطرقات ، وفى معنى الجلوس ، الوقوف أو التردد فى الأمكنة العامة من غير حاجة داعية ، ولا مصلحة باعثة ، فليس الطريق للمتسكعين والمتعطلين ، وإنما هو حق للناس يغدون عليه ويروحون ، لقضاء مصالحهم ، والسعى لأرزاقهم ، فلا

ينبغى لغير ذى شأن فى الطريق أن يَزْحم الغادين والرائحين ، وأن يعوق بهذا مصالح الناس ، ويعطل ولو بعض التعطيل ، أعمالهم ، وأن يضايقهم ، ويعرضهم للأخطار .

فإذا لم يكن لكم بد من الجلوس على الطريق ، أو الوقوف فى الأماكن العامة أو ارتياد المتنزهات ، حيث تقضى عليكم مصالحكم بذلك . أو تدفعكم إليه حاجة الصحة والاستجمام ؛ فإن لرسول الله ﷺ فى ذلكم هدياً كريماً يقى المجتمع من شر عظيم ، وضرر وخيم ، طالما ارتفعت منه الصيحات بالشكوى ، وطالما تعرضت به الآداب والأخلاق للبلوى :

غضُّوا أبصاركم : فليس من الإيمان ولا من المروءة ولا من الرجولة أن تمد عينيك إلى الغاديات والرائحات ، فإن ذلك حتى إذا اقتحم أفضى إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير . وليذكر كل جالس فى الطريق ، بل كل قاطع للطريق ، أن له أختاً أو بنتاً أو زوجة قد تمشى فى الطريق ، وقد يصيبها من الناس ما يصيب به الناس « والحرُمات قِصاص » .

كفوا أذاكم : فما كان لكم أن تطيلوا ألسنتكم على الناس ساخرين أو ناقدين أو متطلعين إلى ما بأيديهم من أموال وبنين ، فلكل امرىء شأن يغنيه . كفوا أذاكم فما كان لكم أن تجعلوا الطريق بجلوسكم مرضة لما تلقون من أقذار ومياه وفضلات مآكل ، فربما تقززت نفوس

المارين من بصاق كريه ، وربما زلقت قدم بقشرة « موزة » أو « برتقالة » فكسرت ساق أو ذراع .

وإذا استطعتم أن تكفوا الأذى ، وأن تغضوا البصر فإن عليكم واجباً آخر للطريق :

ردُّوا السلام : فإنه تحية المسلمين ، ورائد التآلف والمحبة وعنوان الأمن والسلامة ، والإعراض عنه يوجب الجفوة ، ويدل على الاستخفاف بالناس ، وربما جرَّ إلى ظن السوء ، فجلب العداوة والبغضاء ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ .

مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر : فالمسلمون متضامنون فى العمل على الخير ودفع الشر : إذا مرَّ بك حمَّال أثقل على دابته ، أو أوجعها ضربا ؛ فانه عن هذه القسوة ، وامره بالرحمة . وإذا رأيت كبيرا يعنف على صغير فيزعجه أو يضربه ؛ فمره بالرفق ، وانهه عن العنف ، إذا وجدت فتى يغازل فتاه ؛ فذكره بالأدب والفضيلة ، وانهه عن الفحش والرذيلة ، إذا وجدت مفطراً فى رمضان ؛ فذكره بحق الله عليه ، إذا وجدت ملهوفا ؛ فأغثه ، إذا وجدت ضالا ؛ فاهده السبيل ، إذا وجدت كفيفا ؛ فقده إلى الطريق ، إذا وجدت مُقعدا ، فأعنه ، وهكذا كن مصدر خير حيثما كنت ، ومدفع شر حيثما اتجهت .

البعد عن مواطن الشبهات

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كلم رسول الله ﷺ إحدى نسائه ، فمر به رجل فدعاه وقال : يافلان هذه زوجتى صفية ، فقال : يارسول الله . من كنت أظن فيه فإنى لم أكن أظن فيك — يعنى : إذا ظننت السوء بأحد من الناس ؛ فلن أظن بك — فقال عليه الصلاة والسلام : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

* * *

من مصلحة الإنسان ومن أسباب نجاحه وسعادته أن يثق الناس به ، ويعرفوا فيه النزاهة والاستقامة والشرف ، ذلك بأن الإنسان مَدَنى بطبعه — كما يقولون — فهو محتاج إلى الناس فى كل جانب من جوانب النشاط والسعى والعمل ، وإذا أمكننا أن نتصور رجلا يعيش فى بيداء من الأرض لا يتصل بالناس ولا يتصلون به فإن هذا الرجل أسوأ حالا ممن فقد ثقة الناس به ، واشتهر عنه فيما بينهم أنه فاسد معوج ، لا يعبأ بقوانين الشرف والكرامة ، فإن الناس يقاطعونه ، ويبتعدون عنه ، ويتحامون التعامل معه ، ولا يحبون مصاهرته ولا مجاورته

ولا مصاحبته ، فيعيش فى الدنيا غريباً كالمنقطع فى الفلاة ، يحيط به الخراب المعنوى ، كما يحيط بصاحبه الخراب المادى !

لذلك كانت الثقة والسمعة الطيبة بين الناس من أهم ما يحرص عليه العقلاء ، ولذلك أيضا كانت من أهم ما وَجَّه إليه الدين أنظار المؤمنين ! .

لا يكفى أن تبتعد عن إتيان المنكر ، وارتكاب الفسوق ، ولكن يجب عليك مع هذا أن تبتعد عن مظانّ السوء ، ومواقف الشبهات ، لئلا يساء بك الظن ، ويتطرق إلى سمعتك الشك ، فإذا اضطررت إلى موقف من هذه المواقف فبادر بالتخلص منه ، والخروج من شبهته ، ولا يُخادعْك الشيطانُ فتقول : أنا فوق الشبهات ، وأعلى من الشكوك والريب ، فهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل فى نفسه : لم يكن من عادته ﷺ أن يكلم امرأة فى الطريق ، ولكنه اضطر إلى ذلك لمصلحة لابد من رعايتها ، فأدرك بفطرته ما فى هذا ، وأن الشيطان ربما استغله فوسوس به ، فقال للرجل الذى رآه : هذه زوجتى فلانة ، فلما قال له الرجل : لو شككتُ فى الناس جميعاً ما شككتُ فيك ؛ أجابه قائلاً : إن الشيطان — بما يثيره فى النفوس ، ويوسوس به فى القلوب — يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ومعنى ذلك أن النفوس تتغير ، وأن القلوب تتحول ، وأن الحزم أن نأخذ بالحذر والاحتياط .

وقد روى أن موسى عليه السلام قال لابنة شعيب — وقد أبلغته دعوة أبيها ، ورغبته فى زيارته — : سيرى خلفى وصفى لى الطريق ! لم يكن موسى عليه السلام شاكا فى نفسه ، ولم تكن الفتاة وهى ابنة رسول الله شعيب ممن يُشكُّ فيهن ، ولكنه مع ذلك لم يرض أن يسايرها جنباً إلى جنب ، ولم يرض أن يمشى خلفها ، فأمرها أن تمشى هى خلفه وتصف له الطريق ، كراهة أن يراهما أحد فيظن بها السوء وهى تمشى مع رجل غريب عنها ، لم يره أهل بلدها من قبل . فهذا نبى مع ابنة نبى ! .

* * *

ودِدنا لو تدبر هذا أولئك الذين نصادفهم على رءوس الشوارع أو المنعطفات فى ليالى الظلام الحالكة ، يتحدثون إلى النساء قريبات كنّ أو بعيدات ، وربما طال الحديث ساعة أو ساعات والناس غادون رائحون ! .

وددنا لو تدبره أولئك الذين يقفون على محطات الترام ، أو عند أبواب المتنزهات ، أو على أرصفة الشوارع أمام المقاهى والحوانيت ، لا لغرض إلا لاقتناص النظرات ، ومعاكسة المارات !

وددنا لو تدبره أولئك اللواتى يخرجن مع غير محرم بحجة قضاء مصلحة أو التمتع بنزهة ، أو شهود « تمثيلية » فتقضى إحداهن مع هذا الغريب وقتاً طويلا لا ثالث لهما فيه إلا الشيطان ! .

وددنا لو تدبره أولئك الذين يفرضون الثقة المطلقة فى أبنائهم وبناتهم ، فلا يزعجهم ، ولا يثير نخوتهم أو ظنونهم ، أن يعود الفتى أو الفتاة بعد هجعة من الليل ، فلا يُسأل أحدُهما : أين كان ؟ وإن سئل ، قُبل منه أى جواب ! .

وددنا لو تدبرنا هذا فلم نبح مصاحبة الفتى للفتاة باسم الخطوبة التى قد تفسخ ، وباسم الصداقة ، وباسم القرابة ، وباسم الحفلات والتعاون على جمع التبرعات ، وما إلى ذلك من الأسماء التى تُخدعنا بها ، وأصبنا من قبلها ! .

ياقومنا :

لا تخدعكم الأسماء ، واتقوا الشبهات فى أىّ مظهر ظهرت ، فإن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات ؛ واقعَ الحرامَ ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

السبع الموبقات

« عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله . وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

* * *

إن الجرائم فى هذه الحياة كثيرة ، ومن أشدها فتكا بالأفراد والجماعات ؛ هذه الخصال السبع التى وصفها النبى ﷺ بالموبقات — أى : المهلكات — والنبى ﷺ يأمر أمته باجتنابها ، وعدم الاقتراب منها ، اتقاء لشرها ، وحفظاً من أثرها السوء البليغ .

وهو يذكر فى أولها : الشرك بالله ، وهو عنوان لفساد العقل الذى هو نعمة الله على الإنسان فى هذه الحياة ، والشرك بالله له صور وألوان : فعبادة غير الله شرك ، ونسيانه فى الملمات والتوجه فيها إلى أحد من خلقه شرك ، وإهمال أوامر الله مع إيثار أوامر الخلق شرك ، وابتغاء خديعة الناس ومراءاتهم بعمل الخير وفعل الطاعات شرك ، .

وتعظيم الناس بما يعظم به الله من أقوال وأفعال شرك ، والنذر للأولياء والطواف بقبورهم والاستغاثة بأسمائهم شرك ، والشرك فى جميع صوره وألوانه قاض على الفضيلة ، مميت لعاطفة الخير ، سبيل للتردى فى الهاوية ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماءِ فتخطفُه الطيرُ أو تهوى به الريحُ فى مكان سحيق ﴾ .

وثانى هذه الموبقات « السحر » : والسِّحر كلمة معروفة عند الناس جميعا ، وهو عنوان « الدجل » وصرف الناس عن الحقائق وشغل بالهم بالخيالات والأوهام ، وكثيرا ما تستعمل فيه ذلاقة اللسان ، والحيلة لاستلاب الأموال من خفاف الأحلام وذوى العقول المريضة ، وقد قعد أصحابه بذلك عن الكسب الطيب ، والسعى المشروع ، فكانوا وصمة فى جبين الأمة يجب القضاء عليها ، والتطهر منها .

وثالثها : قتل النفس البريئة التى حرم الله قتلها ، والقتل من الجرائم التى تقضى على الأمن ، وترمل النساء ، وتيتم الأطفال ، وتزرع الإحن ، وهى التى قال الله فيها : ﴿ مَنْ قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعا ﴾ والتى يقول فيها : ﴿ وَمَن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾ .

ورابعها أكل الربا : والربا هو انتهاز فرصة الضائقة المالية لأخيك ، فرصة الإعسار وشدة الفاقة ، التى توجب على الموسر أن يمد يد المساعدة لأخيه المعسر ، ولكنه بدلا من أن يمد إليه يد المساعدة بالصدقة أو القرض الحسن ، يمد إليه يد الجشع ليتقاضى منه عشرة أو عشرين مع المائة ، حتى إذا لم يقدر على الوفاء ؛ ضاعف عليه . ثم ضاعف ، حتى يثقل ظهر أخيه ، ويذهب بما قد يكون له من بيت يؤويه ، أو أصل مالى يستثمره ، فيتكفف ، ويتسول ، ويتلصص ، وينتهب ، ويفسد فى الأرض . الربا مفسد للعلاقات الاجتماعية ، مهدد لكيان الأمة ، وحسبه أن الله يقول فيه : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ .

خامسها : أكل مال اليتيم : اليتيم الذى فقد أباه ولم يبلغ الرشد والقدرة على إدارة الشئون ؛ جدير بالعطف وحسن الكفالة ، والعناية بالتربية وحفظ ماله واستثماره ، وحسب الأولياء والأوصياء قول الله عز وجل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾ .

سادسها : التولى يوم الزحف : أى التهرب من وجه العدو ، إنه آية الجبن ، وسبيل النكبة تنزل بالأمة ، وفى معناه التولى عن كل عمل تتوقف عليه مصلحة البلاد عامة . فالحرب فنون شتى ، والدفاع عن الأوطان والحريات فنون شتى ، فحرب المقال لها دفاع المقال ،

وحرب الطغيان لها دفاع الطغيان ، وحرب السيف لها دفاع السيف .

سابعها : قذف المحصنات ، العفيفات ، الغافلات عن الشرور والآثام ، المؤمنات بربهن ، وأوامر ربهن ، فى بيوتهن ، ومع أزواجهن وأولادهن ، تشاع عنهن الفاحشة ، ويُرمين فى أعز شىء عندهن ، وهو الشرف ، ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

شـــهَادة الزور

« عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح ، فلما انصرف قام قائماً فقال : عدَلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله . ثم قرأ : ﴿ فاجتنبوا الرجسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزور حُنفاء لله غيرَ مشركين به ﴾ .

* * *

ما بعث الله الرسل ، ولا أنزل الكتب إلا لإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وهو لم يكلفهم فى ذلك إلا بما تقضى به الفِطَرُ السليمة ، والعقول القوية الناضجة التى لا تخضع لشهوة ولا تتأثر برغبة .

ألا وإن أهم دعائم هذه السعادة ، أن يطمئن الناس على حقوقهم ، ويستقر فيما بينهم أمر العدل لا فرق فيه بين قوى وضعيف ، وغنى وفقير ، وعظيم وحقير .

ولا تجد أبعث للشقاء والاضطراب ، وأنفى للهدوء والاطمئنان من سلب الحقوق : إنه يقطع الصلات ، ويغرس الحقد ، ويثير عواطف

الانتقام ، ويهدد المجتمع بالأخطار ، ويحمّل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد .

لهذا فرض الله القضاء بين الناس ، وشرعه حسما للمنازعات ، وحفظا للحقوق ، وصونا للمصالح ، وتهدئة للخواطر ، ولابد للقضاء من وسائل يتبين بها الحق ، ويتضح بها سبيل العدل ، ومن أهم هذه الوسائل الشهادة : طلب الله أداءها ، وحذّر كتمانها ، وأنزل فى هذا الشأن : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتُمها فإنه آثم قلبُه ﴾ .

وإذا كان هذا وعيد من يكتم الشهادة ، فما بالنا بمن يشهد الزور فيُهدر دما بريئا ، أو يضيع حقا مهضوما ، أو يؤكل بالباطل مال فلان لفلان ، أو يُلصق التهم جزافا بالمحصنين والمحصنات ؟

إن شاهد الزور ليرتكب بشهادته ألوانا من الجرائم ، وأنواعا من الإساءات : يسىء إلى نفسه ، فيُسقط منزلته ، ويبيع كرامته ويخسر دينه ودنياه ، ويسىء إلى المشهود له فيُعينه على الظلم ، ويمكنه من الاغتيال ، ويمهد له سبيل الخسران عند الله وعند الناس ، ويسىء إلى المشهود عليه ، فيضيع حقه ، ويخذله فى وقت تشتد فيه حاجته إلى الناصر والمعين ، ويسىء إلى القاضى وإلى المجتمع إذ يطمس بشهادته معالم الحق ، ويُضل عن طريق الصواب ، ويمكن للظلم والفساد !

لهذا كان خطرُ شهادة الزور عند الله ورسوله عظيما ، يقول الله

عز وجل : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى الريح فى مكان سحيق ﴾ فيذكر قول الزور بين الشرك من ناحيتين : قبله وبعده ، ثم يصور حالة المشرك التى قرن بها قول الزور ، بهذه الصورة المفزعة التى تنخلع لها القلوب !

وكما جمع القرآن بين الشرك وقول الزور على هذا النحو ، جمع النبى ﷺ بين هول يوم القيامة وهول شهادة الزور ، فقال : « إن الطير لتضرب بمناقيرها ، وتحرك أذنابها من هول يوم القيامة وما يتكلم به شاهد الزور » .

* * *

ليس قول الزور خاصا بما كان أمام القضاء ، أو فى الدعاوى والأحكام ، ولكن له ألوانا : وصفُك إنسانا بغير ما هو عليه ؛ شهادة زور ، امتداح الجاهلين بالعلم ؛ شهادة زور ، الترويج للباطل والمبادىء الفاسدة ؛ شهادة زور ، تشويه العاملين المخلصين ؛ شهادة زور ؛ مجاراة الرؤساء فى رغباتهم على حساب الحق والمصلحة شهادة زور ، التلبيس على الناس بتسمية الأشياء بغير أسمائها ؛ شهادة زور ، وهكذا كل قول أو إشارة تجافى الحقيقة ، وتصور غير الواقع ، شهادة زور !

وحسب المتلبسين بلون من هذه الألوان أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوما فى اهتمام عظيم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ — وكررها ثلاثا — قالوا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقوْل الزور . ألا وشهادةُ الزور . فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت ! » .

الخمر مفتـــاح كل شـــر

« عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر . من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُشرب عليها الخمر » .

« وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومُعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » .

« وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » .

* * *

إنما تعظم الجريمة ويكبر إثمها عند الله ، بمقدار آثارها السيئة فى الإنسان أو فى المجتمع .

وإن أكبر نعمة أنعم الله بها على الإنسان ؛ هى العقل : بها فضّله على كثير من خلقه . وبها مكنه من عمارة هذا الكون وجعله صاحب السلطان فيه ، وبها يكون الإيمان ، وبها يُعرف الخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وبها تدرك العلوم والصنائع وأسرار الله فى

ملكوته : أرضه وسمائه ، ومائه وهوائه ، ولولا نعمة العقل لما كان الإنسان إلا حيوانا كهذه الحيوانات التي يسخرها .

إذن ؛ فالجريمة التي تذهب بهذه النعمة الكبرى هي أشد الجرائم أثرا في الإنسان وفي المجتمع ، وأكبرها — لذلك — عند الله إثما . هذه الجريمة الكبرى هي شرب الخمر : تغطي على العقل ، وتذهب النخوة ، وتُفقد الكرامة ، وتميت الشجاعة ، وتأتي على الصحة والمال ، وتسقط المروءة والهيبة ، وحسب شارب الخمر تضييعا لكرامته ، وإسقاطا لمروءته وشرفه ، أن يهيم على وجهه متخبطا ، تعبث به الصبية ، ويتدافعونه ذات اليمين وذات الشمال ، في الشوارع والأزقة والمنحنيات ، حتى إذا انتهى به المطاف ؛ أفاق وهو على إفريز ، في زمهرير البرد ، يكاد يقيىء أمعاءه ، أو بين حسرات زوجه وأبنائه على عنوان عزهم الضائع ، وشرفهم المثلوم ، فإن لم يكن هذا أو ذاك ؛ فهو في قسم من أقسام الشرطة تركله أرجل الجند ، وتلكمه أيديهم حتى الصباح !

والخمر بعد هذا هي أم الخبائث ، ومفتاح كل شر على الإنسان كما يقول الرسول ﷺ : بها يقتل ، وبها يزني ، وبها يسرق ، وبها يسب ، وبها يهمل واجباته ، وحقوق أهله وبنيه ، وحقوق الناس عليه .

لهذا كله جعلها رسول الله ﷺ عديلة الكفر ، ونفى الإيمان عن

شاربها والمتصل بها : فشاربُها ملعون ، وساقيها ملعون ، ومشتريها ملعون ، وبائعها ملعون ، وعاصرها ملعون ، وطالب عصرها ملعون ، وحاملها ملعون ، والمحمولة إليه ملعون ، والجالس على مائدتها ملعون !

فإلى الذين يتخذون الموائد لشرب الخمر ، ويقيمون الحفلات لشرب الخمر ، ويخلطون النساء بالرجال على كئوس الخمر :

إنكم لا تسيئون بهذا إلى أنفسكم فقط ، وإنما تسيئون إلى أولادكم وأزاجكم وأهليكم وجيرانكم وأمتكم ، فإنهم إياكم يقلدون وعلى آثاركم يقتدون !

وإلى الذين يتغاضون عن شاربها ، ويتحامون الإنكار عليهم رهبة منهم ، أو رغبة فيما عندهم ، أو استهانة بما يفعلون :

اعلموا أن نقمة الله إذا نزلت عمَّت ، ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وقد لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل لأنهم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ .

وإلى الذين يُهِمُّهم أمر هذه الأمة ، وصيانة عزتها وكرامتها وفى أيديهم مقاليد أمرها ، وزمام نظامها :

أجيبوا داعى الله فأنتم أول مسئول بين يدى الله ، وعار أى عار ؛ أن تبقى الخمر محترمة مرخصا بها ، تباع وتشترى ليلا ونهارا ، سرا

وجهاراً ، في بلاد تدين بالإسلام ، وتقرأ القرآن ، وقد عُقد لها لواءُ الزعامة على المسلمين .

وإني أعيذكم بالله أن تقولوا ما لا تفعلون ، وأن تكونوا من الذين قالوا آمنا وهم لا يؤمنون .

لا يدخل الجنة نمّام

عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة نمام » .

وفى رواية : « لا يدخل الجنة قتّات » والقتات هو النمام :

وعنه ﷺ أنه قال : « شرار عباد الله المشاءُون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب » .

* * *

خلال السوء تبدد عرى المحبة بين الناس ، وتجعلهم شيعاً وأحزابا ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وشر خلال السوء خلق النميمة ، خلق الإفساد بين الناس ، قل التنغيص وتكدير الصفو ، خلق الإيذاء بغير حق ، خلق التسول بالأعراض والأباطيل : يذهب النمام إلى صاحب الجاه ، أو السلطان ، متزلفا إليه ، مريقا ماء وجهه ، فيلقى الكلمة بين يديه ، وكثيرا ما تكون زورا وبهتانا ، فيُقضى بها على الأبرياء الغافلين ، يذهب إلى أحد الصديقين ، فيلقى الكلمة مرة ومرة ، دون تورع ولا حياء ، ولا يزال يلقيها ويلونها ويحلف عليها . والله يعلم أنه كاذب ، حتى يقتلع ما بينهما من ود وصفاء ، ويغرس فى قلبيهما البغض والجفاء . يذهب إلى الزوجين أو القريبين ، فيفسد بينهما ، فإذا الزوج

يسىء إلى زوجته ، وإذا الزوجة تشاكس زوجها ، وإذا الولد حَرْبٌ على أبيه ، والأخ حرب على أخيه ، وهكذا يفسد العشائر ، ويهدم الأسر ، ويقطع بوشايته ما أمر الله به أن يوصل .

ولا نعلم مفسداً جمع الله له من شر الخصال ، مثل ما جمع الله للنمام : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتُل بعد ذلك زنيم ﴾ وحسب النمامين قوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فد احتملوا بُهتانا وإثما مبينا ﴾ وحسبهم أن النبى ﷺ يصور سوء عاقبتهم بقوله « يحشرهم الله فى وجوه الكلاب » مسخوا الحقائق ، وشوهوا خلق الله ، فمسخهم الله ، وشوه خلقهم . وفيهم من الكلاب بعد ذلك خلال : ينهشون الأعراض ، والكلاب تنهش ، ويبتغون بوقيعتهم غرضا حقيرا ، والكلاب تتلمس الجيف ، ويرتمون فى أحضان من ينمون إليهم ، فإذا استغنى عنهم نبذوا نبذ النواة ، والكلاب تنبذ ويستغنى ببعضها عن بعض ، لهذا يصور الرسول ﷺ حالة النمامين يوم القيامة بأنهم يحشرون فى وجوه كوجوه الكلاب .

والحذاق من الرؤساء والحكام يحتقرون هذا الصنف من الناس ، ويأبون أن يرتبوا الشئون على وشايته : وشى رجل بآخر عند عمر بن عبد العزيز ثم هم أن يخرج ، فقال له : لا تخرج ياهذا حتى نحقق هذا الأمر ، وننظر فيما نسبته إلى فلان ، ففزع الرجل وقال : « العفو العفو ياأمير المؤمنين ، لا أعود إليها أبداً ! » .

والنمامون يدخلون على الناس كما يدخل « ميكروب » المرض الفاتك إلى الجسم : يستخفون ولا يظهرون ، ولذلك أمر الله نبيه أن يستعيذ به من شرهم ، وسلكهم فى شرار ما خلق ، فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ . وكان النبى ﷺ يقول « لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا ، فإنى أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر » .

لا تشاؤم ولا تمائم ولا دجل فى الإسلام

« عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : جاء فى ركب عشرة إلى رسول الله ﷺ ، فبايع[1] تسعة ، وأمسك عن رجل منهم ، فقالوا : ما شأنه ؟ قال : إن فى عضده تميمة[2] ، فقطع الرجل التميمة فبايعه رسول الله ﷺ » .

« وكان عليه الصلاة والسلام لا يتطير — أعنى لا يتشاءم — ويقول « إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وقد روت عنه بعض زوجاته أنه قال : « من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه لم تقبل صلاته أربعين يوما » .

* * *

كان لأهل الجاهلية أوهام وخرافات ، فمن ذلك أنهم كانوا يعلقون ودعة أو عظمة أو كعب أرنب أو طوقا يحيط بالعنق ، يعتقدون أن

---

(١) بايع : عاهد .

(٢) العضد : غليظ الذراع . وهو من المرفق إلى الكتف — والتميمة : خرزة أو ما يشبهها يعلقها الجاهل معتقدا أنها تقيه من العين أو السحر .

ذلك يقى من العين ، ويصرف شر الجن . ومن ذلك أنهم كانوا يتشاءمون بمرور الطير شمالا ، فربما خرج الرجل يريد سفرا ، فصادفه طير يمر نحو شماله ، فيعود من حيث أتى ، معتقدا أن سفره غير سعيد ! ومن ذلك أنهم كانوا يأتون الكهان والعرافين فيستنبئونهم الغيب ، ويستشفونهم من الأمراض ، فيصدقونهم فيما يقولون ، ويصدعون بما يأمرون ، متأثرين بذلك فى أعمالهم ، وسائر تصرفاتهم .

وقد جاء الإسلام بإهدار ذلك كله ، وبيان بطلانه وفساده ؛ لأنه يريد المؤمنين أقوياء ذوى عزمات ماضيات ، وعقول لا تعرف إلا الحقائق ، ولا تؤمن بالأوهام ، فما عُرف عن رسول الله ﷺ أنه تشاءم ، أو أتى كاهنا أو عرافا ، بل كان ﷺ يشدد النكير على من فعل ذلك ، وينفى الإيمان عمن اعتقده ، ولا يرضى بأن يعاهده ، وينبىء أن عبادته مردودة ، وصلاته غير مقبولة ، لأنه متناقض مع نفسه ، مضطرب فى عقيدته ، يزعم أنه مؤمن بالله وهو مؤمن بالجبت والطاغوت !

هذه الأوهام والمعتقدات الباطلة التى كانت فى الجاهلية ، والتى حاربها الإسلام حربا لا هوادة فيها ، مازالت تجد فينا من يعتنقها ، ويبنى كثيرا من أحواله وتصرفاته على أساس الثقة بها .

كثير منا يأتون العرافين ، وضراب الرمل ، والطوارق بالحصى أو

الودع أو الفول ، وكثير منا يؤمنون بدجل هؤلاء ويقعون فريسة هينة « لنصبهم » واحتيالهم ، وكثيرٌ منا يلجأون إلى من يفتح الكتاب ، أو يقيس الأثر ، أو يكتب الحجاب ، أو يطلق البخور ، أو يشفى المعوَّقة ، أو يصلح المطلقة ، أو يحضر العفاريت ، أو يعمل « الزار » كل ذلك يفعله بعضنا ، ويعتقده حقائق واقعة ، وكم ضاعت من جراء ذلك أموال وكرامات وأعراض ، وكم تفشت من الركون إليه مفسدات وموبقات وأمراض ، وإننا لنرى التاجر يهمل تجارته ، ويغفل عن الأسباب الطبيعية لنجاحها أو فشلها ، اعتمادا على كتاب أو حجاب كما نرى البيوت يفسدها النزاع والشقاق ، لأن الأمر فيها قائم ؛ لا على التفاهم الحقيقى بين الزوجين ، ومعرفة كل منهما بنفسية الآخر ؛ ولكن على السحر و « الزار » والتمائم والتعاويذ ، وأدهى من ذلك وأخطر أن كثيراً من العامة يصابون بالأمراض الفاتكة ، والأوبئة المهلكة ، فلا يتداون ، ولا يعرضون أنفسهم على طبيب ، ولكنهم يعتمدون على رقية أو بخور أو حجاب ، ويتركون المرض يسرى فى أجسامهم ، وفى محيطهم ، سريان النار فى الهشيم ، يزعمون أن ذلك بركة وإيمان ورجوع إلى الله . والله يعلم إنهم لكاذبون .

روى ابن ماجه أن زينب امرأة عبد الله بن مسعود كانت قد أصيبت باحمرار فى عينها ، فجاءتها عجوز فجعلت لها رقية فى خيط ، فلما جاء عبد الله قال : ما هذا ؟ قالت له زوجته : هذه رقية لحمرة عينى ، فجذبه فقطعه ورمى به . وقال : لقد أصبح آل عبد الله

أغنياء عن الشرك ! قالت له زوجته فإنى خرجتُ يوما فأبصرنى فلان فدمعت عينى التى تليه — تريد أنه حسدها — فإذا رقيتُها سكنت دمعتها ، وإذا تركتها دمعت ! قال عبد الله : ذلك الشيطان ! — يعنى أن ذلك وهم ووسوسة من الشيطان — ولكن لو فعلت كما فعل رسول الله ﷺ ؛ كان خيرا لك وأجدر أن تُشفى : تنضحى فى عينك الماء وتقولى : « اذهب الباس رب الناس ! اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » .

وهكذا علمها أن تعالج عينها علاجاً ماديا بالنضح فى الماء ، وأن تعالج وهمها ، ووسوسة الشيطان لها ، بالرجوع إلى الله والثقة به . وتلك سنة المؤمنين .

الجـدل والخصــام

« عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » يعنى الشديد الخصومة المبالغ فيها .

« وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » والجدل شدة الخصومة والمهارة فيها .

« وروى قتادة رضى الله عنه مرسلا : أن رسول الله ﷺ قال : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً فى الباطل » .

* * *

هذا هدى نبوى كريم ما أحوجنا إلى الالتفات إليه ، والعمل به ، ولا سيما فى هذا الوقت العصيب الذى خضنا فيه كل مخاض ، وتجرعنا كئوس التفرق والخلاف ، وصرنا شيعا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » .

إن الأمم والجماعات لا تسعد ولا تنتج ولا تستقيم أمورها إلا إذا

اتحدت ، وتعاونت ، وكانت قوة واحدة تصدر عن رأى واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، تلك قضية لا مراء فيها : التاريخ عليها شاهد عدل ، والدين شاهد عدل ! فهؤلاء هم العرب الأولون كانوا شتاتا يختلفون على الصغير والكبير ، ويتقاتلون فى الحقير والخطير ، فكانوا أمة مستضعفة مبددة فى الصحراء ، مقبورة المواهب مقصية عن المشاركة العملية فى شئون الحياة ! .

فلما أرسل الله إليهم نبيه محمداً ﷺ ، جعل قصاراه وأكبر همه أن يستل من بينهم أسباب الأحقاد . ودوافع الخصومات ، وأن يجمعهم على كلمة سواء : فأهدر الأنساب ، ووضع الخصومات وألغى الترات ، وألف بين قلوبهم بالتوحيد وربط بين عواطفهم بأخوة الإيمان ، ونادى فيهم « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد » و ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

جلجلت فيهم هذه الدعوة ، وارتجت بها أرجاء الجزيرة العربية وأصاخوا إليها بعد تلكؤ وشماس ، فإذا هم أمة مهيبة ذات دولة وعزة ومنعة ، وإذا هم سادة فى العالم وقادة ، وإذا هم بناة للمجد ، وأعلام للحق ، وحفاظ على الفضيلة ، ورعاة للخلق ، وألسنة وأقلام للعلم والأدب ! .

وظلوا كذلك حتى بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار

البوار : فإذا الضعف والشتات ، وإذا الذل والشقاء ، وإذا الخضوع للأقوياء ، وإذا الانحلال والتفكك والفناء ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

لذلك ينهانا رسول الله ﷺ عن أسباب التفرق ، وعوامل التقاطع ، ويبين لنا أن أبغض الأشياء إلى الله هو الجدال واللدد فى الخصومة ، وأن هذه الظاهرة إنما تفشو فى الأمم التى ضلت سواء السبيل ، وجانبت خطة الفلاح ، كما يحذرنا مغبة الخوض فى الباطل ، والاشتغال باللهو والعبث وما لا يغنى من القول ، فإن ذلك كله مهلكة للأمم ومفسدة للأخلاق ، ومضيعة للأوقات والأعمال ، وقد ذكر الله بعض خصال الإنسان فى معرض الذم فوصفه بأنه « خصيم مبين » و « ألد الخصام » و « أكثر شىء جدلا » وتحدث عن الكافرين فوصفهم بأنهم « قوم خصمون » « يجادلونك فى الحق بعد ما تبين » وحكى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة وهم فى سقر « وكنا نخوض مع الخائضين » .

لقد أصبنا بالشرين جميعاً ، وتعرضنا للخطرين كليهما فكل مجتمع لنا قائم على الخوض فى الباطل ، واللغو فى الأحاديث ، والمزح الماجن واللهو الخليع : نجتمع فلا نجد ، ولا نحزم . ولا نفكر فى أمورنا ولا نتدبر فى مصيرنا . ولا نتشاور فى مشاكلنا ، ولكن يعبث بعضنا ببعض ، و « يُنكِّت » بعضنا على بعض ، ونغتاب ، ونقذف

المحصنين والمحصنات ، ونروّج للأباطيل والشائعات ، وندبر المكائد للغافلين والغافلات .

ونحن مع ذلك أمة جدل وخصام : فى الصحف جدل وخصام ، وعلى المنابر جدل وخصام ، وفى الأندية جدل وخصام . وفى البيوت جدل وخصام ، حتى الشوارع والسيارات العامة فيها جدل وخصام ! .

ومن العجيب أن الجميع مؤمنون بخطر ذلك على الأمة وضرره على الأخلاق والفضيلة ، وأن كل إنسان يتحدث به ويأسف عليه ، يستوى فى هذا عامة الشعب وخاصته ، ولكنهم مع ذلك فى خوضهم يلعبون ، وفى مرائهم وجدلهم يختصمون .

إن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .

وإن رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأفضل من الصلاة والصوم والصدقة ؟ إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة » .

إن لصاحب الحق مقـــالا

« عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ اقترض من أعرابى بعيراً فلما حلّ وقت الأداء ؛ جاء الأعرابى يطلب دينه ، فأغلظ على الرسول فى الطلب . فاستاء لذلك الأصحاب وهموا بإيذاء الأعرابى لإساءته الأدب مع الرسول . فقال لهم الرسول عليه السلام : دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ، ثم قال : أعطوه سنا مثل سنه . أى جملا مثل جمله . قالوا : يارسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، أى أحسن منه . فقال : أعطوه . فإن خيركم أحسنكم قضاء » .

وعن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى ، وإذا قضى » .

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حوسب رجل ممن كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلا أنه كان يخالط الناس — أى بالبيع والشراء والمعاملة — وكان موسرا . وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر . قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه ، تجاوزوا عن عبدى » .

وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

* * *

إن معظم الخصومات التى تقع بين الناس ترجع فى الغالب إلى سوء طلب الدائن دينه ، وسوء الأداء من المدين . وسوءُ الطلب يكون بالتشهير بين الناس ، أو بالجفوة والغلظة ، كالذى حصل من الأعرابى للرسول ، وبالرفع للقضاء والمدينُ مستعد للأداء ، وبالتحكم فيه وهو فى فاقة وعسر ، وسوء الأداء يكون بإنكار الحق ، أو المماطلة فيه من غير عذر . أو بدفع الردىء فى مقابلة الجيد ، ولا شك أن هذه معاملة سيئة ، تقطع صلات المحبة والتعاون ، وتوغر الصدور ، وتفكك الروابط الاجتماعية ، وكثيرا ما تدفع إلى التقاضى فتضيع أموال ، وتتناثر بيوت ، وتذهب دماء ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه — وهو الحريص على خير أمته — يقرر فى علاج هذه العلل : أن الله يرحم الرجل السمح فى بيعه وشرائه ، السّمْح فى مطالبته بحقه ، السمح فى أداء ما عليه من حقوق ، ويبشر بوجه خاص ذلكم الذى يقدر حالة مدينه ، فيتصدق عليه بدينه ، أو يُنظره إلى وقت القدرة إذا عرفه بحالة لا تسمح بالسداد — يبشره برحمة من الله ورضوان ، وحسبه فى ذلك قول الله فيما يحكيه الرسول عنه « نحن

أحق بذلك منه ، تجاوزوا عن عبدى » ثم يضرب الرسول الكريم من نفسه مثلا لأمته ، هو من أروع الأمثلة فى احترام الحقوق ، وتمكين أصحابها من المطالبة بها ، كيفما كانت منزلتهم ، وكيفما كانت منزلة من عليهم الحقوق ، وإن للحق لروعة تجعل الضعيف قوياً حتى يأخذ حقه ، والقوى ضعيفاً حتى يؤخذ منه الحق . وحسب المتكبرين فى إهانتهم أربابَ الحقوق قوله ﷺ لأصحابه وقد هموا بإيذاء صاحب الحق : « دعوه فإن لصاحب الحق مقالا » وقد جاء فى هذه الحادثة أنه ﷺ قال « كان جديراً بك ياعمر أن تأمره بحُسن الطلب ، وأن تأمرنى بحسن الأداء » .

* * *

أيها الدائنون ، ويامن بيدهم حقوق الناس :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

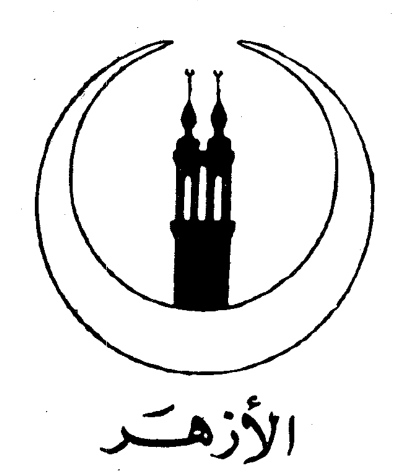
الفهرس

الموضوع : الصفحة

الموضوع : الصفحة

الموضوع : الصفحة

الموضوع : الصفحة



الأزهر

مطبعة المصحف الشريف